رواية

إيڤآنا أنجلو

روايـة

إيڤآنا أنجلو

وليد عوض مكاوي

دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم ـ السودان

الكتـــــاب : راوية (إيفانا أنجلو)

المؤلـــــــــف : وليد عوض مكاوي

رقم الايــداع: / ٢٠١٧

سنة الإصدار : ٢٠١٧

الطبعـة الأولى

الناشـــــر: دار عـــــزة للنشـــــر والتـــوزيـــع

الإدارة: شارع الجامعة – الخرطوم – جنوب وزارة الصحة

ت : ٢٤٩٩١٢١٣٧٢٩٦ +

٢٤٩١٢٣٣٥٠٣٥٠ +

التوزيـــــع :

دار عزة للنشر والتوزيع ت : ٨٣٧٨٢٠١

السودان – الخرطوم ص.ب : ١٢٩٠٩

بريـد إلكترونى : azzaph@yahoo.com

ردمك: ٥٢٢ – ٥٤ – ٩٩٩٤٢

إهـــداء

إلى ....

من جعـلتني أن أؤمن بأن الكتابة

مـشروعا ً لإنتـاج الآم أكـبر مـن

وعينى الجمعي تبدأ بحركة قلم ...

تنويه

أنوه بأن هذه الأحداث التـــى قامــت عليهــا البنــاء الروائي والشخوص هى من محض الخيال ولا تنتمى للواقع المعاش، وإذا تشابهت وقائع وشخصيات فإن هذا من غريب المصادفات.

فى ليلـة خريفيـة ممطرة مشبعة برطوبـة عاليـة وبعضٍ من الـدفء، وصلت إلى" بيت الثقافة " تلبية لدعوة من بعض الشعراء الشباب الذين دخلوا إلي المشهد الثقافي بقوة وعزيمة، يقع " بيت الثقافة " في شرق الخرطوم بأرقى أحياء العاصمة ببيوته الأثرية ذات الطابع الإنجليزي، التي تمتاز باللون الأبيض الناصع ومساحاتها الواسعة .وحدائقها التي استوردت أزهارها من أوربا والهند، يتميز هذا الحي بنظافته وربما يعود ذلك إلى أن جميع ضباط الجيش الإنجليزي وموظفين إدارة الاستعمار كانوا يقطنون في هذا الحي في الماضي، وكانت الخرطوم في ذلك الوقت هي المدينة الواقعة شمال السكة الحديدية، مقسمة إلى ثلاثة أحياء رئيسية وهي الحي الإنجليزي ويقع شرق شارع الملك نمر حتى الشارع المؤدي لكبري بحري ويليه الحي الإفرنجي ويقع بين شارع المك نمر وشارع القصر،والذي كان يسمى في ذلك العصر بشارع فكتوريا، وكان يسكن في هذا الحي الجالية اليونانية والجالية الإيطالية واليهودية،كما كانت هناك أسر شامية سورية ولبنانية وأرمنية، أما الجزء الواقع غرب شارع القصر فكان به السوق العربي كان خليط بين أسر سودانية مثل آل الزيبق و آل كشة وآل الفوال وآخرون والأسر القبطية استقرت شرق شارع القصر مثل حوش بولس وحوش سليم، موقع الكمبوني الحالي وعماره آل نخلة الواقعة في تقاطع شارع الحرية مع تقاطع شارع الجامعة، وكانت كل جالية من هذه الجاليات تخصصت في أحدى المهن، لقد

كان اليونانيين (الإغريق) يعملون بالتجارة العمومية، وكانت لهم حانات في وسط الخرطوم مثل (كلورد بايرون) و(شناكا) وخباز (بشارع الجمهورية، ومن أشهر رجال الاعمال اليونانيين في تلك الفترة (كونت مخلص) الذي أنشاء المدرسة اليونانية ومبنى الجالية بشارع الجمهورية مع تقاطع شارع المك نمر (السفارة اليونانية)، وأشهر امرأة مدام (كترينا) كان لها متجر صغير في شارع أبو سن بالخرطوم شرق وكانت تبيع الفول والزيتون والرغيف والجبن والمخلالات والسجائر المستورد، ثم انتقلت بمتجرها في أوائل الستينات إلى الشارع المشهور باسمها (شارع كترينا) الذي يقع شرق حديقة القرشي بالخرطوم جنوب وينتهي غرب مسجد (شروني) أما السوريين واللبنانيين احتكروا تجارة المنسوجات والأصواف وأشهرهم آل قرنفلي وآل المراشي،أما آل كافوري من لبنان كان له مزارع لإنتاج الألبان في منطقة كافوري المعروفة، أما الأسر اليهودية كانت تحتكر تجارة المحاصيل، مثل كالفرد قاعون، وحبيب كوهين، واليرث أشكنازي وآل دويك وآل العيني ..لقد كان الاقتصاد السوداني يدار بواسطة مجموعة من اليهود وبعض الأرمن والإغريق، ولقد وضعوا أيديهم على خمسة وتسعين في المائة من اقتصاد البلاد، مع العلم أن أول مفتشة لوزارة المعارف كانت يهودية وهي " أستير بسيوني " وفي ثورة أكتوبر 1964 دعا أحد قادتها بمصادرة ممتلكات الجاليات وبالتحديد اليهود وجميعهم كانوا يحملون الجنسية السودانية، وامتلكوا العاصمة بمواقعها الأسترأتيجية ابتداء من كبري النيل الأبيض حتى كبري النيل الأزرق، ومن وسط الخرطوم حتى حي العمارات وأعرق الأحياء بامدرمان وبحري، وكل البنوك الخاصة وشركات الصمغ العربي والأحذية والجلود، باعت هذه الجاليات ممتلكاتها في أسرع وقت، بعد أن شعرت بتهديد نحو أموالها من قبل الحكومة، هربت ما أمكن من

ثروتها إلى أوربا ثم إلي إسرائيل، والجزء الأخر خرج من البلاد بعد حرب ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل وهذه المرة باعوا حتى " المعبد اليهودي" القائم بشارع " القصر الجمهوري "ولم يتركوا أي اثر شاهد على وجودهم غير مقابرهم القائمة بالمنطقة الصناعية بالخرطوم!!.

ذهبوا وتركوا سؤال صعب الإجابة عليه ، كيف خرج الاقتصاد السوداني معهم بنسبة خمسه وتسعين بالمائة إلي خارج البلاد، وتركوا الحكومة في صراع مع الشعب علي خمسة بالمائة ؟! دارت الأيام دورتها جلس " جعفر النميري" رئيساً للبلاد، تم اختراقه من قبل الموساد عبر الاستخبارات الأمريكية، بمده بالمعونة والقمح والمشورة إسعافاً لاقتصادنا، ورسم ملامح لسياستنا الداخلية والخارجية، وبعد عدة أعوام دفعوا نفس أموالنا التي خرجوا بها من البلاد، في أكبر عملية ترحيل في تاريخ قيام الدولة اليهودية لليهود الإثيوبيين " الفلاشاء " من مطار الخرطوم إلى " تل أبيب " رأساً، ولقد تم إيداع ستين مليون دولار في بنوك سويسرا ولندن بذلك الوقت، لحساب الرئيس " جعفر النميري " وبعض معاونيه ورئيس جهاز مخابراته، لم يكن يدرك بأنه يقبض ثمن رحيله من كرسي السلطة ! وبذلك جعل السودان ثاني دولة تطبع علاقاتها بإسرائيل بعد مصر في العالم العربي، بطريقة غير مباشرة، إنهم كانوا على أستعدد لبيع أي شيء لا يمتلكونه حتى لو كان وطن، استغلنا اليهود بأموالنا، لا أعرف انه الغباء أم التسامح الذي نشتهر به ؟! دخلت مبني " بيت الثقافة " الأغرب بان شكله العام لا يدل على أن له علاقة بكلمة " ثقافة " هذه الكلمة المجيدة، لم يكن له أدنى اهتمام من وزارة الثقافة يعطي الزائر إحساس بالأماكن المهجورة والخرائب التي تهيم فيها الأشباح وتسكن فيها البوم، لمحتها جالسة بالصف الأمامي في المقدمة كان حضورها طاغي على ذهني يمتلكني بقوة، من

المؤكد أنها حضرت قبل الموعد كأنها تترقب موعداً تاريخياً، سمعت أسمي من مقدمة البرامج، كان المقصود من الدعوة أن أقدم كلمة الافتتاحية في هذه الليلة الشعرية مرحباً بالضيوف والمبدعين الجدد من الشباب. وقدمت ورقة نقدية حول " إرساء دعائم السلام من منظور ثقافي " في بلد يحمل تركيبة أثنية ذات ثقافات متعددة وواضحة، الأغرب أن هذه الليلة خلت من النجوم والنياشين .... ذات مرة قال وزير حكومة "هتلر" وظله الذي لا يفارقه "غوبلز" كلما سمعت كلمة" ثقافة" تحسست مسدسي؟؟ لها نظرة فيها شيء من الحذر،الترقب،والجوع الأزلي،الاشتهاء،الدفء الأنثوي، أنهيت كلمة الافتتاحية بعد جهدٍ كبير لقد كانت نظراتها تشوش أفكاري وتصيبني بعدم تركيز، جلست في مقعدي العرق يتصبب من جسدي بغزارة، أنه التوتر أمام ثقافة معقدة وامرأة تثقب وجداني بنظراتها وتجذبني نحو مدارها المغناطيسي.. كيف عالج" هاملت " توتره..؟ كانت اهتماماتي دائماً تستدرجني إلى قدري المحتوم، أنه الكتاب. لأنه الشيء الوحيد الذي أستبيحه في صمت وعزلة مجيدة وبلذة تغمرني ويقود إحساسي نحو عوالم مفتوحة وأخرى مغلقة، كانت نظراتي تتجه نحوها، بوضع مجهري تتفحص كل ألاماكن التي تتحرش بي وتضرم النار في جسدي، لماذأ هناك جبن فطري يتميز به الرجل دون المخلوقات عندما يتعلق الأمر بأنثئ ! تلفت انتباهك تثيرك بجمالها الذي يسكن في هدوء وأدع مثل عصفور في لحظة ريح، أستمر الحديث حول مشاكل الإبداع والتوتر الذي يهيمن على المشهد الثقافي، كان هناك صدام شبه يومي بين جيلين جيل من الشباب يشعر بمسئوليته اتجاه الوطن، ويحاول نحت وتشكيل ثقافة متفردة تشمل كل الألوان، ويشعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه أنه أمام عالم ملئ بالتحديات وهناك جيل يطلق علي نفسه " صناع الثقافة " يسترزق باسمها

لهم مناصب تشرفيه وحاشية وأتباع، أنهم يعيدون التاريخ ويحملون جينات " أبي الطيب المتنبى " يبحثون تحت أقدام الحاكم عن ولاية حتى لو كانت في مكان لا يعبره الطير..!!

تذكرت صديقي " مجتبي " عاني بقدر ما عاني المثقف العربي من ويلات الأنظمة المتعاقبة عليه، كان يدخل المعتقلات بنفس المسميات التي تحفظها الأنظمة العربية عن ظهر قلب، شيوعي، طابور خامس، عميل للغرب، الآن يفترش الأرض يبيع كتب علاج الضعف الجنسي، ومهارات العلاقات الزوجية السعيدة، وفك السحر والصحف الشعبية، ومجلات الطهي والتجميل، أنه يبيع الاحلام في مدينة تختنق فيها الرغبات تحت وطأة السرية المفروضة...! التطرف في الفهم هو الغباء بعينه، ما العيب ان يكون الإنسان شيوعياً ؟! فنحن ومن قبل سبعة ألف سنة قبل الميلاد مجتمع اشتراكي تعاوني ويشهد على ذلك كرمنا ومجاملاتنا الزائدة عن الحدود؛ وعندما حضر إلى السودان الرئيس الروسي الراحل " خروشوف " زائراً ، رأي السودانيين مصادفة في أحدى المآتم يحضرون الطعام من منازلهم ويتناولونه في جماعة ...!

قال: هذا هو المستوى الذي نريد ان نصل إليه بالشيوعية وشعبنا، انبهر الرئيس الروسي بروح التعاون والتسامح في الأخلاق السودانية، التى احتفت بها حضارتنا منذ سبعة إلف سنة قبل ميلاد المسيح، ذلك التسامح الذى أمرت بها جميع الديانات السماوية، ان النظام الاشتراكي مكتشف لدينا منذ الأزل، لماذا نرفض أو نجرم من يدعون إلى، المساواة، والتعاون، ومناهضة الطبقية، واحتكار الثروة ؟ لقد دعت الاشتراكية إلى القضاء على الإنتاج الضخم على أساس توسيع التعاونيات وبمساعدة الدولة ! و من

المعلوم ان جميع الثورات التى نهضت في جميع إنحاء العالم اشتعلت من اجل مبادئي متعارف عليها، وهي، الحرية، وحق الحياة الكريمة، وحق التعليم، والصحة، انه تغيير بسيط لنظام عالمي قديم، من قبل نظام عالمي جديد.. لماذا يحاسب البشر على أنتمأتهم أو معتقداتهم، مادأم يخدمون الوطن...؟ كيف يعرف الانسان ما يريد في هذه الحياة حتى يتسامح مع نفسه ..؟؟ فشهوة السلطة تواقة للعنف، وليس من طبعها ان تدعوا للمحبة، ولا تعشق دين يدعوا للمحبة، تقيم المحارق والمذابح للشرفاء من ابناء الوطن، وتقيم المآدب والاحتفالات للخونة، و المرابين واللصوص، وشهوة السلطة أن تخسر من يحب الوطن، وتكسب من ينافق من اجل وطن ... الوطن مثل الصلاة، لا يبالي بمن يطلب رحمته بدون عمل، الوطن مثل الروئ لا تتحقق إلا للأنبياء... والأغرب عندما سقط الزعيم الروسي خروشوف من كرسي السلطة، عمل لفترة ناظرٍ لمحطة قطارات، ولما أشتد عليه الضعف وأصبح عاطل ليس لديه عمل، لقد وجدوه ميتاً في أحدى الحدائق العامة وفى حضنه الراديو الخشبي الذي تلقاه هدية من الرئيس المصري جمال عبد الناصر...!

فقت من أفكاري التي دائماً ما تذهب بي، ما وراء العوالم السوداوية، هكذا المثقفين وحدهم يشعرون بخصوصية ألآمهم، لا شيء هنا غير الصراخ نحو الفضاء وحده يبتلع الأشياء التي يطلقونها نحو السماء، أنه موت تراجيدي مأساوي لوطن يتألم بقسوة ، موت أشبه بنزاع إبطال مسرحية ليس لهم ملامح أو أسماء فقط يؤدون أدوارهم بصمت .. يا الهي امرأة تفاجئني وتجعلني كريشة عصفور في مهب ريح امرأة مثل المطر تغمرني نسماتها وتسكن في دواخلي دعاشٍ مسائيً بارد، في وطن لا ينتج غير الصيف والرغبات الساخنة ... ساد هدوء في المكان بعد ظهور مذيعة

البرامج وهي تتحرك في خفة ورشاقة ومرح كأنها عارضة أزياء وابتسامة لا تفارق شفتاها عبر صوتها مساحة الصمت، وخرجت الحروف بتنميق جميل سلس و وأضح أعزائي السادة والسيدات الحضور الكريم نقدم لكم الآن الشاعرة والنجمة الخارجة من سماء الوطن الصاعدة من جنوبنا الحبيب " إيڤآنا أنجلو " في قراءة شعرية من ديوانها الأول " عذراً لا تطرق بابي اليوم " وأتمنى لكم ليلة سعيدة وشكراً... وفجأة مرت من أمامي وصعدت إلى المسرح . مرت كل المناخات ورائحة الغابات الاستوائية، يا الهي أنها هي تواصل التحرش بي أصبحت في حالة من الذهول بسبب شهوتي التي تتربص بها وهي تقرأ أشعارها.. قصائد ذات لغة جميلة لها خصوصية ايقونية تبدأ في عملية خلق أحلام و روئ غير واضحة وولادة كل الأساطير تضحية " فيلوكتيتس " وقداسة " عشتار " وهي تشيع الحب إلي قبور العشاق وجبروت " نيرون، " وجنون " فان جوخ "، وشذوذ " فيرلين و رأمبو "، أشعار تصيبني بطعنات عشقيه قاتلة إلى حد الانتحار أشعار تبحث عن الحياة، البؤس، الحزن، السعادة، والسفر نحو مدن عتيقة تنبعث منها رائحة المدن والقرى، التي تصحو مع الفجر تعانق ضفاف النيل لتقبل شفاه الشمس، كنت كعاشق حالم أبحث عنكِ بين أسطر أشعاركِ وأساطيركِ المجنحة التي تسكن مدنكِ المقدسة، ثواني ودقائق وساعات مرت من الزمن وهي امرأة تدوخ القصائد وتفجر الكلمات إلى شظايا وتغسل ضحاياها بماء الورد والقرنفل والنارنج.. امرأة تتعاطاء الشعر كأنها تضع عطرها المسائي لموعد عشقي حميم، تخرج الحروف من بين شفتيها في حالة من الهذيان والإعياء التام، ثمة إغراء يتدفق من جسدها الأبنوسي بطوله الفارع يحرك كوامن شهوة قديمة قابعة منذ لحظة الخلق الأولى .. دائماً تثيرني المرأة عندما تكون علي خشبة مسرح، أو متمردة في روأية رومانسية، أنها تخلق

فوضئ كونية في دوأخلي عندما تلقي الشعر، أنها تعيد كل الحضارأت الغابرة وتعكس مجري النيل من البحر إلى المنبع، تحضن الكلمات بحب تراقصها وتاخذها في دوران مسكر جميل، ثم تستلقي بها في حضن بياض الورق لتجسد ميلودراما القصيدة .. علاقة خلقتها صدفة الوجود لديها أسئلة أكبر حجماً من الواقع أسئلة وجودية بدون أجوبة، في الحب والمناخات والكائنات، صوتها بنبرته المميزة كان الفاجعة الكبرى للسعادة والحزن، يصدح بعذوبة له حنين قديم مثل أجراس كنائس ريفية في ليلة عيد ميلاد .. صوت له حميمية خاصة، وبحة شبقية مثل تلك التي تصاحب الإنسان في اللحظات الأخيرة من خروج الروح من الجسد، كأنها تحاكي لذة الالم .. أشعار تحرك النزعة الصوفية في الروح مثل موسيقي " باخ " بالتحديد "القداس"، ذلك الطقس الذي يقدم في صلاة الأضحية " الكاثوليكية " كلمات لها من الابتهال تجعلني زاحفاً على ركبتي احتراماً وتقديراً لها، .. أنهت قراءتها تجاوب معها الجمهور بموجة من الضوضاء بعد أن أصابتهم بحالة من الذهول بصدمة اللقاء الأول، عندما يلتقي الجمال والشعر الواشي لمشاعرنا وأحسيسناء، يدمر جميع الأماكن التى يسكن فيها الحقد والتعالي الغير مبرر ليزرع الجمال بديلٍ للخراب الموحش، لقد أقامت علاقة مع ما كل ما هو يومي وعابر، تمتلئ بهجة ولذة وهي تخاطب اللحظة المدهشة من عمر الأسئلة، التجريب، والرفض، التمرد، والعبث الوجودي، تستشرف المستقبل عبر الماضي، نصها هو إحساس جسدها الذي لم تقراه عين أو تمسه أصابع، نص يرصد تحولات العلة الأولى للإنسان، الموت، والغياب، لقد كانت تمتلك الصبر والحاسة السادسة من حالة الإبداع، لقد أصبحت إشعارها الفتح الجديد للكتابة، وضد ما يكرسه الإيديولوجي والسياسي من حالة سكون بأفق ضيق فظيع وشرس، ولقد أيقظت هذه الحالة صورة شعرية

جديـدة متكاملـة فـي عـالم مـن الأحـلام، وتـستمر فـي هـذا الطقس الجنـوني لتستكين فـي منفـئ وجودهـا والتشبث بهويتهـا التـى لـم تـدنس، فتـدخل إلـى مرحلة الهذيان وتمتهن وتمارس عنف النص لتفجر أحلامها، وتقوم بإنتاجها بكل الغرابات الممكنة واللغة المبهمة والمجازات الغامضة، وتدفعها هذه اللغة نحو دهشتها ونرجسيتها العظيمة، إلى حدود وعدها الكبير بـالتمرد عن أفق الحلم، فتخلق نصاً مترعاً بالجمـال والأنوثـة، ويقذف بهـا إلـى أتـون الحريـق، إلى عطش جسدها الفظيع للذة والإسرار ولمنـاطق الأشـواق،حتى يـصبح هـذا الجسد نصاً فيأخذها ويحلق بها إلى فضاء الكتابـة، إلـى ذلـك الحيـز الوجـودي الحابل بلحظات ميلاد الحرية، ولحظات من الغنـاء والـضوء والألـوان، لتخلـق من ذاتها انـأ مجروحـة بنرجسية الجرح الهشة، والـوهم، واللعب، واللوعـة، لقـد وصـلت بـشاعريتها إلـى ذروة النـشوة بجوانبهـا الإضـافية، ووضـعت بصمتها على أفق شعري عميق ومتخيل، نـافذ يغوص فـي الجـوهر النقـيء للكتابـة، انـه نـص يـنهض نـاعساً مـن اثـر اللـذة مـصاباً بـدوار شـوق الجـسد للجسد، هي وحدها تختزن في روحها الـصفاء، حتـى إذا قـدمت مـن المجهـول البعيد رفعت صوتها عالياً وقذفت به الـى واقعنـا التعيس، باحثـة عن المطلـق المشتهى والرؤى الصادمة المبهرة، غادرت المـسرح نحـو مقعدها، لكنهـا لـم تغادر ذاكرتي بعد أن أشعلت فيها النيران والحرائـق الهائلـة، فقدت إحساسي بـالزمن والأشـياء التـى مـن حـولي، أصـبحت كـأني أدور فـي غرفـة مظلمـة وأتحـسس الطريـق للخـروج إلـى الـضياء، لقـد فقـد عقلـي قدسـيته للحيـاة، الضربات القوية دائماً تجعلنا نترنح وتفقدنا أتزننا و تصيبنا بدوخان اللحظات الأولى الانبهار، أعلنت مذيعة البرامج عن استراحة قصيرة ومعاودة فقرأت البرامج، استغليت هذه الفرصة ومعي بعض الحضور، تجمعنا حول الكافتيريا في هذا الجو الممطر البـارد الرطب نوعـاً مـا ، أشعلت سيجارة ، ثـم انزويـت

نحو أحدى الأركان، طلبت فنجان قهوة خالي من السكر لكي أعيد الصفاء إلى ذهني بعد أن أرهقته أمرآة سكنت بين جوانحي لعدة ساعات، في هذا المكان الذي أصبح يشهد تاريخ حضور ولقاء، فجاة خرجت من لحظة التجلي وانغماسي في أفكاري برائحة عطر نسائي، قوي و شهي امتلكني وبث في دوأخلي إحساس غريب مثل إحساس راقص "باليه " وهو يمتلك المكان والفضاء من حوله .. صوت نسائي رقيق عذب وشفيفاً يأتي من خلفي وهو يردد

: مساء الخير أستاذ أمين

نهضت واقفاً على طولى بدون أن أشعر بشيء مصاب بحالة ذهول وصدمة اللقاء الأول، أنها هي بكامل هيئتها أمامي لا أصدق ما يحدث ربما ضلت الطريق وليس إنا المقصود !

رديت وسط ذهولي: مساء الخير، وأضفت تفضلي بالجلوس وسألتها حتى لا أعطيها فرصة الاعتذار، ماذا لو سمحت تشربين ؟

ردت من خلف ابتسامة خلابة اصابتني بصدمة اللحظة الاولى من اللقاء: قهوة سكر خفيف لو سمحت

طلبت فنجان من القهوة وأنا غير مصدق لهذا التداعي الذي بدأ يحدث في هذا الوقت وبهذا الشكل الغريب. أخذت رشفة من فنجان قهوتي بتلذذ فشعرت بمسامات عقلي تتفتح امتلكتني جرأة اللقاء الأول .....

رديت: اسمي خليل احمد أمين " مساعد تدريس بجامعة الخرطوم كلية الآداب تاريخ، ناقد مهتم بالآداب عامة والشعر خاصة

ظهرت ابتسامة جميلة من خلف أسنانها البيضاء، المتوهجة الطاغية على لونها الأبنوسي أومأت برأسها كأنها تعرفني من قبل ان نلتقي، كان صوتها يحمل صدئ حنين اليف في القلب، ردت: اعرفك من خلال المنابر

الثقافية، ثم بادرت بتعريف نفسها: " إيڤآنا أنجلو " من مواليد مدينة " جوبا " درست القانون لا اعمل به متفرغة لكتابة الشعر، حرفة تحتوي إحساسي ثم أضافت ، أنا سعيدة اليوم ولي عظيم الشرف أن التقي ناقد بقامتك ..

حاولت أن أتحكم في مرور الزمن، وان أتجنب نظراتها التي تأسرني وتجعلني مشتت الأفكار .

دخلت في حديث مباشر معها قلت: لديكِ قصائد جميلة في مفرداتها لا تجنح للسلم تقتال كل الأساطير التي في طريقها ..

ردت: إنا الآن محظوظة جداً ان أجد ناقداً بحجمك.. لقد قرأت لك الكثير من كتب النقد التي أصدرتها ، ومعجبة جداً بطريقة نقدك للنصوص الشعرية لك طريقة خاصة بك تحمل ملامحك فقط ... شكرتها علي هذا الإطراء الذي أصابني بالخجل والتوتر

ردت: كان على أن أجدك منذ زمن بعيد حتى لا تتلوث نصوصي بالآخرين

رديت: إن أشعارك تذكرني بماضي سحيق وتتركني في حالة من الزهو الفكري تجعلني أستعيد أرث تاريخي لمدن وبشر وأحداث لم تكن فى ذاكرتي من قبل

أضفت بعد أن اخذت رشفة بتلذذ من فنجان قهوتي: مهنتي النقد

منذ فترة طويلة وأنا ابحث عن قصائد وأشعار تتجاوز العادي تشعل نيران الإثارة فى عقلي، الآن كلماتك تناصبني العداء تجذبني نحو هاوية عميقة، أسمع صوت الدم يخترق الأوردة والشرايين ضجيج مؤلم تصنعه هذه الكلمات والمعاني.

ردت بعد أن أكتسي وجهها الطفولي البريء بقسمات من الجمال

المشرق المضي :- لم أتوقع أن يحدث لك كل هذا بسبب أشعاري !

رديت: ان قصائدك التي سمعتها اليوم، حقاً إنها جميلة أنتِ توظفين عوالم خفية مشحونة بزخم من الأساطير لديك لغة أثرية تعرضت للاندثار منذ مئات السنين، وهذه الميزة لم أكتشفها عند نصوص الآخرين، أنتِ تقيمين علاقة أشد حميمية بين مشهدك الشعري وسؤال الدهشة المطروح على وأقع الحياة.......

كانت ترمقني بنظرة محاطة بشيء من الاسترخاء والاستسلام ، عيون مترعة بحزن عميق وغموض غريب ، ربما أنه السر العظيم الذي جعل من العيون ، هوس وافتنان الشعراء، ومشاريع ذات اهتمام لمصممي الماكياج، وأداة قتل لا ترحم عند القناصة تحدثنا حديثٍ طويل كالحلم يحمل في داخله عذوبة اللقاء، عن المشهد الثقافي والهم اليومي رغماً عن تدخل السياسة في بعض الأحيان ، كنا نتجاوزها لكي لا تعكر صفو الحديث .. لماذا دائماً الثقافة مهددة باستراتيجية السياسي ؟ أسهبت " إيڤانا " في الحديث حول مدينتها التي نشأت فيها بجنوب السودان " جوبا " .. مدينة كان منطق الحرب جنونها ببشاعته، حرب لا أحد فيها منتصر فالحروب مفهوم ضد الإنسانية أنها تشوه المدن بالموت وترهقها بالبؤس، تزيل أكبر حضارة خلقت علي وجه الأرض الإنسان، العدل، السلام، حرب مدمرة لا تفرق بين العدو والصديق والخيرّ والشرير الجميع تحاصره النيران، وسقوط عدد أكبر من الأبرياء يمثل نصراً، للمنتصر الذي يسمى فى عرف الحروب بالبطل، ذلك الشخص الذي يحمل سلاحه ويخرج من منظومة الإنسانية ويدخل إلى عوالم الهمجية والبربرية، بالنهب والاغتصاب بتهديد السلاح، وهي بصمة دموية في التاريخ البشري لا يمكن إزالتها بدون مؤثرات علي مر الأجيال.. كانت

تحن إلى وطنها الصغير ومدينتها " جوبا " الممزوجة بأعراق كل قبائل الجنوب ، تحدثت عن الطبيعة وسحرها ومفاتنها ، التي تظهرها للزائر عند أول خطوة يخطوها نحو هذه المدينة أشجار الباباي والمانجو تداعبها النسمات الاستوائية الخريفية وترقص علي إيقاع الموسيقي الأفريقية، التي تعبر عن الفرح والتحرر من آلام الروح والجسد وبسوقها الذي يعبر عن التمازج الحقيقي ببضائع الوافدين من دول الجوار . تحدثت عن والديها ونجاتهم من الموت المحقق في أحدى القرى التي يعملا فيها موظفين في " منظمة الصحة العالمية " وهروبهما إلي أحدى معسكرات اللاجئين الهاربين من ويلات الحرب، في شمال " أوغندا " يتبع " للأمم المتحدة " ثم رحيلهما إلي" كندا " ليستقرا مهاجرين بدون إرادتهما، لقد كانت مثلها مثل آلاف الأطفال الذين فصلتهم الحرب عن ذؤيهم، لكنها كانت أكثر حظاً بوجود جدتها " كستيلا " التي قامت بتربيتها .

قالت: إن جدتها عظيمة وهي تراسل والديها باستمرار وتحبهم وتشتاق إليهما

تأثرت بحزنها الذي يملأ دواخلها قلت مواسياً حزنها الأعظم والأكبر من كلماتي:- مأساة الإنسان الأول الحرب، أول جريمة قتل بين أخوين، أصبحت مفتاح وبداية شرارة لخلق الفوضى في العالم ومن هذه النقطة بدأت نزعة الشر والأحقاد تمتلك مصير البشرية، أنه التغيير الخفي لموازين الطبيعة والنزعة الإنسانية.. ويجب أن لا نختلف في وحدة وسريان الكون وأن لا نلتفت إلي الخلف، وعلينا أن نصنع من ماضينا المؤلم ملاحم من السعادة المتواصلة لمستقبل مشرق يغرقنا بالحب والأمل، أنه عزاؤنا الوحيد، شعرت بعد حديثي معها بأني لا أستطيع أن أواصل مجاراتها في الحديث،

حتى لا أفسد هذه الليلة الرومانسية التي خلقتها امرأة بصدفة الحلم.. تحدثت قليلاً عن جذوري في قرية تقع أقصى الشمال المهمش، تحارب التصحر والنسيان وسط فوضئ الوسط ، لم أعد أزورها لأنها أصبحت خالية من السكان، بعد أن أصبحت طاردة لعدم وجود خدمات أساسية، أدى لاغتراب الشباب وتفشي الأمراض المزمنة التي تصيب كبار السن ، هناك أوطان تحتضر إلى درجة النسيان، وحدثتها عن نشأتي في أفقر أحياء العاصمة .. كنت أريد أن انسيها حزنها بحزن أكبر، حزن ان تعيش في وطن وحيداً على هامش اخطاءه .....

رديت: وحدهم القادة والسياسيين يحولون الحب إلى مأساة وحزن كبير، ووجودهم في الحياة أكبر خطاء، ابتسمت ابتسامة خطفت بها صمت الحزن فألقت مناخ التوتر من حولي، أتى ألينا صوت المذيعة مرة أخرى تحي الحضور وتقدم الفقرة التالية .. هكذا الوقت يمضي بنا دائماً بسرعة وبدون محطات في أوقات السعادة دون ان نشعر به، الحلم لا يقاس بالدقائق والساعات بل بلحظة تكوين الرؤيا، تمنيت لو تحدث كارثة وتعطل سير هذا البرنامج، ماذا لو تحدث الآن ؟! جلسنا في أماكننا تحدث الكثيرون وشدا الكثيرون من الفنانين ، طربنا بأروع الأغاني العاطفية والوطنية ، لا أعرف لماذأ دائماً تسبق العاطفة الوطن ؟! آل صهيون كانوا يصرحون " بان وجود عاطفة هاجس يشكل خطورة تكوين وطن " !! أعلنت المذيعة نهاية البرنامج أنها لحظة التوتر والسأم ، أتجه الحضور نحو البوابة وهم يتحسسون الأرض باقدأمهم بسب ضعف الإضاءة، أخذت أتلفت حولي أبحث عنها وسط زحام الحضور، وفجأة لمحتها تتقدم نحوى في خطوات ذات إيقاع منتظم بحذائها العالي على الأرض، تصنع سميفوأنية من الإثارة باهتزاز جسدها، وتصيبني بأعلى درجات التوتر الجميل .. يا الهي لماذأ دائماً الأرض تتحمل

خطايا والآم البشر؟! أما أنها خلقت لذلك ... مدت يدها برفق ودلالٍ أنثوي من خلف ابتسامتها الخلابة

وقالت: إنا سعيدة جداً بهذا اللقاء وأتمنى ان نلتقي في وقت أخر ..

كان عقلي يدور مثل كاسحة ألغام بحذر شديد، أبحث عن مؤامرة تبقيها معي لبعض الوقت أمرآة تحرضني ان أضرب معها موعداً .. عندما يحب الرجل امرأة من أول نظرة، كأنه لاعب سيرك يمشي علي حبل معلق عالياً فى السماء بدون تدريب..

قلت لها: أين تقيمين ؟

ردت وكأنها تقرأ ما في دوأخلي: الخرطوم غرب لكن لا تشغل بالك سوف أوقف عربة اجرة من على الطريق ..

رديت بعد ان أصبحت كل التداعيات لصالحي: لماذأ تاكسي ؟ الساعة الآن الحادية عشر مساءً ، ثم ان منزلي يبعد عن منزلك نحو نصف ساعة ..

شعرت بهدوء داخلي بعد أن أقنعتها ثم سرنا نحو ممر الخروج ، ضوء خافت أشجار مزدانة بمصابيح ملونة تم إحضارها خصيصاً للاحتفال تنبض ببهجة مصطنعة أشعر بإحساس مهيب يحركني دون إرادتي ، كأننا في طريقنا لقطف الفاكهة المحرمة وإشعال نار الخطيئة الأولى ..

ردت: أشكرك علي هذا الاهتمام ؟

رديت: لا عليكِ أنه واجب..

امرأة تجعلني أستثمر كل خدماتي لها بدون مقابل، أنها خلقت من لحظة الصدفة فاجأتني ودفعتني نحو فضاها الرهيب الشهي المدمر لتبعثرني نحو الشفق شظايا من قلبٍ ملغوم، المطر يهطل في ازدياد السحب مثقلة بالماء ، أقود العربة في هدوء كأننا ملائكة نمتطي صهوة سحابة عابرة

وننثر ورود وأزهار على رؤوس البشر .. إيقانا تدندن مع أغنية تصدح من جهاز الكاسيت وتردد بعض المقاطع من الأغنية، التفت إليها وسألتها بشيء من التعجب : هل سمعتي بقصة هذه الأغنية، ردت: لم أكن أعرف أن لها قصة فقط أحب سماعها لأن كلماتها مؤثرة...!

رديت وانأ يدفعني بعض الحماس: أنها حادثة حقيقية حدثت لشاب من أحدي قرى أقصى الشمال ، ذهب هذا الشاب لأداء الخدمة العسكرية في الجنوب بجبهة القتال ترك زوجته وأبنته، وأختفي قرابة الأربعة أعوام انقطعت أخباره لوعورة المنطقة وكثرة الغابات، ولم تجد وحدته العسكرية علي شيء يدل علي أنه على قيد الحياة، اقتنعت أسرته علي أنه أصبح من أعداد الموتى، وأقاموا مراسم العزاء وسط فاجعة الحزن وبحكم العادات والتقاليد، تزوج أخيه الأصغر زوجته بعد مرور عدة أشهر من الزواج، فجأة ظهر كالمهدي المنتظر في قريته هرب الجميع الشباب والشيوخ والنساء نحو قبور الأولياء والصالحين.أيماناً بكراماتهم .. لم يستطيع أن يستوعب ما حدث هل هي خيانة من حبها حباً صادقاً ؟ أما تربص أخيه والقدر به ليصنعا له فاجعة وخسارات أكبر من حياته، التي عاشها وسط الموت بتفاصيله البشعة..! تذكر أجمل الأيام التي قضاها بين أسرته الصغيرة ، رفض ان يعيش بين أهله ميت بدون قبر رجع إلي حضن الجنوب إلي قلب المأساة، الحرب، هذه المرة أسرع " الصليب الأحمر " بخبر موته وإرسال بعض متعلقاته إلي أخيه الأصغر، أصيبت زوجته بالجنون وأصبحت تهيم فى القرية وهي تصرخ وتمزق ملابسها، الآن فقط شعرت برحيله من حياتها إلي الأبد أنه الندم بعد الخطيئة.. وفي ليلة مظلمة لم يتحفها القمر بضيائه. رحل الأخ الأصغر بابنته الوحيدة إلى مكان مجهول ... قالت وهي في حالة من الذهول الذي ظهر علي ملامحها وبعد ان تنفست بعمق. القدر ليس الموت وحده

وطن يصيبنا بالفزع ويعطينا شهادة السقوط المتناقض .

خيم حولنا صمت والأغنية بموسيقاها الحزينة تقترب، أقرب، أقرب إلى دواخلنا وهي تتأمل البرق فى الأفق يلمع تحت زخات المطر

ردت:- يا الهي كم هي قصة مؤلمة، كيف تعرف كل قصص هذه الأغاني أعني الحقيقية منها ؟

رديت:- أغلب أغاني الشمال الأقصى لها قصص واقعية وأنها أعلامهم، وتخليد لمآسيهم وبطولاتهم .

ردت:- لم أكن أعلم ذلك ! ولم أكن في الماضي احلم بان أصادف إنسان مثلك من قبل ان يجعلني في حالة من الذهول..

نظرت لها في هدوء وصمت، كنت أريد أن أدرس خططي وأسترأتيجيتي نحوها الصمت والهدوء نصف جمال أنثوي، الشوارع يغلفها الهدوء ما من شيء ما عدا سقوط المطر، وصوت الرعد المخيف، وومضات البرق جرح غائر يشق احشاء السماء، وبعض العربات المسرعة، أدخلتني بعدة شوارع جانبية .. بعد أن أخذت تخطط لي الطريق نحو قلبها وعطرها المميز يزيد من توتري، توقفت أمام منزلها الذي يتميز بملامح فخامة بسيطة من طراز قديم، طلبت منى قبل أن تترجل من السيارة، أن أدخل معها إلي المنزل حتى يتوقف المطر من الهطول، اعتذرت لها لتأخر الوقت وبارتباكات لحظة اللقاء الأول، كانت لحظة الوداع المشحونة بالحذر العاطفي، شعرت وكأنني أتصفح كتاب قديم مهترئ أخاف أن تنكسر صفحاته بين يدي، دائماً في لحظة الوداع يصبح الشوق عظيماً وتنتابنا أسئلة اللقاء القادم فتحت حقيبتها، أخرجت منه كرت به رقم هاتفها الجوال. أعطتني له بدهشة الارتباك.....

ردت: أتمنى أن نلتقي مرة أخري، تستطيع أن تتصل بي في أي زمن

شئتِ أتمنى لك ليلة سعيدة ..

بدأ المطر في الهطول بانهمار بعد أن كان قد توقف لعدة دقائق . أسرعت نحو باب منزلها والبرق يضيء كاشفاً المكان، ظهرت مفاتن جسدها . صدر مترف يصرخ بامتلاء اللذة، وخصر يسمو بكثافة الأغراء باسقة بطولها الفارع باذخة فى جمالها لوحت بيديها مودعة وأغلقت بابها وتركتني أكثر بؤساً..أيها المطر كن أكثر رحمة لا تبخل على بشيء، عطائك، زخاتك، اجتياحك ، فيضك، أغسلني أيها المطر الغي القبح من دواخلي ، وذيدني القاً و جمالاً .. عطرها يفوح ويحتويني يسكن في ذاكرتي لهاث أنفاس الورد وعبق القرنفل . طريق مليء بالأخطار نحو حضن امرأة، تريدني أن،أقراء كل طرق تدجين النساء... معكِ وحدك يجب ان ندخل فردوسنا المفقود، كيف الدخول إلى حديقة جسدك وقطف وردة في موسم النضج.. ؟ أريد ان أتوجك ملكة على قلبي بطقسٍ مقدس ... دخلت منزلي لا زالت هي متاعي، لا أعرف كم من الوقت استغرقته وانا أحلم بجغرافية جسدها، ومدى صلاحية شفتاها..! استمتعت بحمام بارد حتى يهدئ من غليان دمي ، صنعت لنفسي فنجان قهوة وصوت أغنية عاطفية ذات موسيقي حالمة ، تصدر من جهاز الكاسيت، أنها للفنان العالمي " كيني روجرز" صاحب الصوت الرجولي الرخيم، الأغرب أنه بدأ الغناء في الخمسين من العمر وتعشق أغانيه الفتيات الحالمات، وأغلب شعبيته من المراهقات، أنها موهبة مؤجلة، هكذا الفن وسر عبقريته، يجتاز الحواجز ويكسر قوانين الطبيعة ويهز الكيان الزمني، لماذا تحرك الموسيقى ذلك الإحساس الغامض الجميل البعيد الذي يسكن في عمق روح الإنسان ؟ ومع الموسيقي أصبحت في حالة من التأمل في هذا الركن القصي من عالمي، مثل قديس يحترق مع شموعه مقايضاً خطيئة بغفران، تلك الشموع التي توثق اللحظات الحاسمة من حياة الإنسان، في

أعياد الميلاد والزفاف وفي تأبين ألموتي وعند الصلاة، أنها تجيد دور الوسيط بين السعادة والحزن والموت والحياة.. رن هاتفي الجوال فجأة وبصورة مزعجة . فخرجت من أفكاري ، المتحدث " معتصم محجوب " صديقي الوحيد الذي لا زالت أحتفظ بهي، بعد أن هاجر كل أصدقائي إلى أمريكا ودول أوربا حتى إلى جزر المالديف ، بعضهم ذهب ليبحث عن رزقه في تلك الأراضي البعيدة ، بعد أن أصبح لدينا وطن لا ينتج غير جيل من العاطلين عن العمل، وتنظيمات سياسية ذات شعارات براقة فارغة جوفاء .... هكذا يطعمون المواطن ! والبعض الآخر فاق على مأساة وطن تنكر له، اتهموا بالكفر والإلحاد وشردوا كعادة الأنظمة العربية، جميعهم وجدوا الحرية وبعض من الإنسانية في أوطان خارج خارطة أوطانهم، فطلبوا اللجوء بكل المسميات وفضلوا الإقامة الدائمة .. المرأة تحمل جنين من رجل تحبه، هكذا تحبل الأوطان....

كان صوت معتصم الدافئ مغلف بحنين جميل يأتى عبر الهاتف: لقد اتصلت عده مرات ووجدت هاتفك مغلق ماذا حدث ؟

رديت: لم يحدث شيء فقط كنت مدعواً لمنتدى شعري، لذلك كان هاتفي مقلق..

رد : محتاج ان أجلس معك لأني متؤتر بعض الشيء ..

رديت: أذن ماذا لديك الآن انا فى انتظارك تعال إلى منزلي أنا أيضاً أشتاق إليك..

رد وصوته يحمل بعضاً من الاريحية: نصف ساعة سوف وأكون معك إلي اللقاء

معتصم فى الأربعين من العمر يمتاز بالنحافة والطول، أسمر اللون، لا

تفارق وجهه بسمة شفيفة مرحة، رغم خلفية الألم الواضحة في نبرة حديثه الساخر.. لا يؤمن بالأستقرأر أو بالأصح هو الذي يصنع بيده عدم استقراره، يعمل صحفي غير مرغوب فيه فهو دائماً التنقل من صحيفة لأخرى لأن مقالاته تتسبب في غلق الصحف، ودائماً ما يتجاوز الخطوط الحمراء التي ترسمها السلطات للصحفيين.. ويتم إيقافه مرة بالاعتقال وأحياناً بغلق الصحيفة، بدعوى المحافظة على الأمن واحترماً لهيبة الدولة ! قوي الأرأدة،الظلم نقطة ضعفه يجعله في حالة من البؤس، يحمل إنسانية حرة تفوق القدر، يهوي كتابة القصة القصيرة و النثر أحياناً بدأ حياته الأدبية مبكراً منذ بداية التحولات السياسية في عهد الرئيس السابق جعفر محمد النميري وفي خضم حرب الجنوب وتم اعتقاله ليقضي بالمعتقل ما يقارب عن العام والنصف خلف القضبان، وكانت التهمة الموجهة له هي نفس التهم الجاهزة والمعروفة لدي الانظمة الدكتاتورية، محاولة زعزعة أمن الدولة والتخابر مع دول اجنبية، بحكم عمله كصحفي متعاون بأحدى الصحف اليومية، رغم انه كان في ذلك الوقت ما يزال طالباً بكلية الأداب يدرس الفلسفة وتم أطلاق سراحه مع مجموعة من الطلاب من المعتقل كعملية تبادل عملة،عملية عفو جزئية توافق عليها الطغمة الحاكمة،مقابل تهدئة الرأى العام ... عندما يأتي إلي منزلي دائماً تكون برفقته أحدى صديقاته لم أعرف عددهم يوماً والمرأة هي التي تخطط له مشاريع مزاجه الغريب، وهو الذي قال عنها يوماً ما:-، إنها إحساس الرجل وسر إبداعه وذاكرة فكره وخياله... وكان يري النساء مثل الورود لكل وردة رحيقها، مثل لكل امرأة طعم خاص بها وهي ذلك المخلوق التلقائي الرقيق سواء كانت محظية تمتلك في قصور" هارون الرشيد " أو مثلما كتبت عند، تولستوي، وجان بول، وشكسبير، وبرنارد شو .. أنها نفس المرأة التي لها خصوصية تفاجئنا بها في ظلمة

ليل، وعلي سرير مفاجئ يقودنا إلى عالم شفيف من السعادة والنشوة .. وبرغم تعمقه وفلسفته في أمور النساء إلا أنه دائماً ما تثيره المرأة ذات الثقافة العالية وواحدة فقط يفضل أن تكون بقربه ، أنها " شادية " تحبه بجنون وتشعر بإيقاعات إحساسه في دواخلها ، تقيم علاقات مشبوهة مع أشخاص كثيرين لكن، معتصم هو الإنسان الوحيد الذي تشعر نحوه بالأمان وهو الوحيد المميز بينهم جميعاً.. أخرجني جرس الباب من الحوار مع دوأخلي، مرحبا معتصم الآن فقط كنت تستبيح عقلي بفلسفتك حول النساء.

أومأ لي بابتسامته المشرقة دوماً: أشتاق إليك، ألم تسمع حتى الآن بفقه النساء ! ضحكنا وتعانقنا بنفس الود الذي يزداد يوماً بعد يوم منذ الطفولة، جلس معتصم ووضع أمامه حقيبة جلدية صغيرة يحملها دائماً معه إلي أي مكان، يضع فيها مستلزماته الشخصية، أنه غير مستقر ولا يعرف إلي أين يذهب ؟ ومع من يقضي بقية يومه ؟

رسم على وجهه ابتسامة تحمل شيئاً من الاريحية: أين انت غائب أكثر من أسبوع لا أراك فيه ؟ نلتقي فقط بالتلفون، فهذه الأجهزة الصغيرة لا تحمل الشوق الحقيقي ، اللقاء هو الذي يطفئ نار الشوق .

لم أفاجأ علي سخريته التي لا تفارقه و رديت: بعض المشاغل الغير مفيدة في زمن نركض فيه خلف سراب الحياة..

رمقنى بنظرة ساخرة، متناول حقيبته قائلٍ: لماذا هذا التشاؤم هل هذا هو الجديد في حياتك قاصداً سرابك ؟

فضحكنا بسعادة لحظة اللقاء الجميلة .. أخرج معتصم زجاجة ملفوفة بصحيفة، أنه خمره المعتاد الذي يفاجئني بهي أثناء حضوره ..

قال وهو تكسوه ابتسامه تهكم مريرة:- إذن فلنأخذ جرعات لنسكن

ألآمنا لبعض الوقت..

كان يدرك جيداً أننا جيل لم نعد نتصالح مع هذا الزمن الفوضوي إلا في مثل هذه الجلسات، توجهت إلى المطبخ أحضرت كأسان وبعض المخللات التي يحبها مع الخمر فقط، كان يصب الخمر في الكؤوس بنوع من الاحترام والكبرياء، أنه حب متبادل لجرعة تجعله في نشوة أقرب إلى الحلم، تبعده عن الواقع بضجيجه الذي لا ينتهي وتصبح بالنسبة له ترياق يسكن الآمة، وضع كاسي أمامي، ثم أفرغ ما بيده داخل فمه بامتعاض وقبح شديدان، الكأس الأولى مثل المرأة الأولى في حياة الرجل تحتاج إلي بعض المهارات والمناورات حتى تثق في الرجل، وبعد أن فاق من صدمة الكأس الأولى وبحرائقه الداخلية.

قال: منذ فترة طويلة وانأ لم أجلس في مثل هذا الهدوء ..!

رديت : لماذأ ؟

رد: وهو يصب الكأس الثانية: كنت أذهب وأجلس في الخمارة بعدما يئست في أن أجد أحداً يشاركني الوحدة والحزن على طريقتي .. أفرغ الكأس في جوفه بهدوء مؤلم.

رديت: من الطبيعي أن تشعر بالوحدة والحزن، ولا تجد أحد في هذه الحياة يشاركك فيما تشعر به، لكن جلوسك في ذلك المكان ليس له أي مبرر..

رد وهو يبتسم ابتسامة تدل علي هدوء ثورة الخمر داخله: لفظتني الحياة وحيداً بدون أن تعطيني حق الاختيار ماذا افعل ؟ ..

أومأ نحو جهاز الكاسيت، ثم التفت نحوى وقال: لمن من الفنانين تريد أن تستمع ؟ رديت: أي غناء يثير نشوة السكر في داخلي .

أدار مفتاح التشغيل ، صدحت أغنية قديمة للفنان الراحل "حسن

عطيـة" أسـمها "الخرطـوم"   يغـازل فيهـا الـشاعر "عبـد الـرحمن الـريح" العاصمة وهـي تقبـع بـين النيلـين فـي هـدوء أنثـى باسـترخاء ونـشوة، يؤديهـا الفنـان الكبير الأستاذ "عبد الكريم الكابلي" فنـان الصفوة المثقفة وسفير الفن السوداني إلى العالم .. كانت تقول الأغنية في مطلعها:

لا شك هي عروس النيل وحدها

في المقرن نشوف الأشجار صفوف

والنيل حولها كعابد يطوف

يشرب من زلال من خمر حلال

ويعم الجلال طولها وعرضها

أفرغت الكأس فى فمي، يسري بألم في جهازي الهضمي نيران تـشتعل في داخلي.. موسيقي تدخلني إلى عالم من الإحساس المرهف، أشعر بـاهتزاز وجـداني يحلـق بـي نحـو الـسماء مثـل لوحـة تنـبض حيـاة والـوأن و تحتفـل بمهرجان من الفرح ... كانت تترأئ لي إيڤانا بملامحها ، التي تحمل غموض نظراتها العميقة .. وأناقتها الفاتنة البهية ، لا أعرف لماذأ دائمـاً هنـاك قامـات محظوظة يتنـاسب معها كل ماتلبسه..؟ هل صمم الجسد لملابسها أم الملابـس لجسدها..؟ كانت أستوحاء نظرة ثاقبـة مـن عين فنـان، نحـو مـا تحتاجـه هـذه القامة المترعة أنوثة ، كـان كـل شـيء أنيق عليهـا مـن كثـرة الجماليـات التـي نحتت على جسدها .. حاول معتصم ان يخرجني من تأملاتي ويستدرجني إلي متاهـات الـسياسة أكثـر مـن مـرة، لكنـي كنـت أرفـض تحـت إلحاحـه، كـان لـدى رغبـة فـى الاستماع للموسيقي فـالخمر هنـا فـي حـد ذاتـه نـوع مـن ممارسـة السياسة، ومعتصم يشرب إلى حد الإغماء ورث عادة الشرب من والـده الـذي كان معروف بمزاجه الحاد، لازلت اذكر تلك الحادثـة التـي لا تفـارق ذاكرتـي،

كنا في العاشرة ربيعاً من عمرنا البض، وبحكم الجيرة التي بيننا في الحي.. سمعنا صوت صراخ وضوضاء في الشارع في وقتٍ متأخر من منتصف الليل، خرجنا كان هناك تجمع من أهل الحي أمام منزل معتصم ، يحملون جسداً مسجي فى أقمشة كثيرة والحزن يغطي وجوههم، وهم يستعيذون ويقرؤون آيات من القرآن، سار الحشد نحو المستشفي، ومعتصم جالس على صخرة كبيرة أمام منزلهم، كان ينظر إلى الحشود بحزن وخوف عظيمين.. كنت كلما اقتربت منه تتسع مساحة الحزن عمقٍ وأتساعاً في دواخله، دخل في حالة من الانكسار النفسي ، رأسه منحني نحو الأرض كأنه سليمان الحكيم يموت في صمت بحكمته، كنت أحاول تهدئته من حزنه الذي سوف يجعله مثل لغم لا يراوق كثيراً قال :- أمي حاولت الانتحار وسكبت مادة الجازولين على جسدها وأشعلت النار عليه .. كان صوته صوت رجل في الأربعين من العمر .. عدم الأمان الذي تعود أن يعيشه، لقد افقده أحساسه بالوجود توفيت والدته بعد أسبوعين، أصيبت بحروق من الدرجة الأولى انتحرت بسبب ما كانت تلاقيه من عذاب جسدي ونفسي، على يد والده الذي كان يصحو فجراً فيشرب الخمر حتى مغيب الشمس، معتمداً علي معاشه الحكومي وتسول الآخرين.. ماتت والدته بمادة " الغازولين " تلك المادة الأقرب حميمية إلي موت امرأة، ووسيلة لرفاهية امرأة أخرى، لم يعيش معتصم فى فراديس خضراء من حب طفولي،بل كان صبي يبحث فى أنقاض سنواته الأولى الطرية عن شيء ما أفلت من الانهيار ليتشبس به،الموت.. الحياة فى مدينة قذرة مبتورة من سيرة حضارة عظيمة.. هذا ما انقذه انها الكتابة،كان ينزوي مثل طفلٍ بلا طفولة عند سماع صوت الوالد المرعب،وصوت توسلات وصراخ الأم يحتل الحزن قلبه،يعتكف لساعات تحت أحد الجدران ويمارس البكاء ويستغرقه حلم الحياة لساعات أخرى

فيدخل فى طقس الكتابة ليحافظ على أشياء لم يدركها الخراب،كان بالكتابة يرمم انقاض ذاكرته فكراهيته للأب سممت حلم صباه،فلم يبق إذن لطفل حرم مبكراً من حنان الأم غير التوافق والتألف مع الأشياء التى تشكل الملامح الخشنة للحياة اليومية،الرفض والتمرد كانت ميزة صبي مثقل بتلال من الصدود والنكران مرهون لكابوس قديم يطارده..موت الأم، تركك معتصم منزله في العشرين من العمر، لم يلتقي بوالده الذي مات بحادث سيارة مؤلم .. ولم يذهب في ذلك اليوم إلى العزاء قال لي، وهو يذكر أعمال والده "السادية" نحو والدته :- فقدت والدي لكني لم أفقد ملامحي ولم أفقد ألاسم الثاني على بطاقتي الشخصية ، ولم أفقد وطن لكني فقدت دم نقئ لا تجري فيه جينات والدي، ترك داخله جرحاً غائر مؤلم لا يندمل بسهولة، وفى كثير من الأوقات كان يستيقظ من نومه وهو يصرخ النار، النار، وعندما يشعر بوجودي قربه

كان يقول ضاحكاً: لا أشعر بشراهة الحلم لكني أشعر بشراهة النار ، نحن جيل هزائم الإباء المخجلة كان يشرب بافرأط حتى لا يفاجئه الحلم المؤلم، هذا ما يورثه الإباء للأبناء، استيقظت صباحاً على صوت منبه هاتفي الجوال، السكر الليلي لا بد له من منبه صباحي.. أخذت حماماً باردٍ لتنشيط الدورة الدموية استعداداً لدورة الحياة ذات الإيقاع الواحد الذي يطغي عليها الملل، صنعت لنفسي فنجان قهوة سوداء خالي من السكر، لتعيد التوازن لراسي اتجهت نحو مكتبي بالجامعة، بعد أن تركت معتصم يقضي بقية يومه في نوم عميق، وهو في حالة من الإرهاق بسبب السهر يلازمني وجه إيڤانا الجميل يسامرني بجاذبيته، أنها الألفة في حضرة الجمال . كيف اغرق فى حضن مثل هذه المرأة بملامحها الأفريقية؟ امرأة برائحة الغابات ودعاش المطر، امرأة أغرق في موج جمالها الهادر، وتجتاحني بلغة صمتها، أنها

تشوش دوأخلي وتدخلني في رهبة أساطيرها ، أذبح الذبائح وأقدم القرابين للآلهة، وأسكب الخمر في فم "باخوس" * مثلما كان يفعل جنود "اثيناء" ابتهاجاً بالنصر.. أريد منك موعداً أريد دفءً لأعبر به صحراء صقيعي، لأهبط في محطات عمري نحوك، يا امرأة ملكتني من كل الزوايا والأبعاد والاتجاهات، نظرت إلى الساعة نظرة عدو فيها شيئاً من السخرية والتهكم، لا زالت الدقائق هي التي تصنع اللبنات الأولى من السعادة ثم اللحظات الأخيرة من الحزن..! خمسة عشر دقيقة تبقي من الزمن لموعد المحاضرة ، شرعت في ترتيب اورأق المحاضرة ، وآنا في حالة من الاستياء الغير عادي من كمية الأتربة المحيطة بالمكتب من كل الجهات، فعامل النظافة يفوق الثمانين من عمره وتقاعد من العمل إلى المعاش، ثم تم أعادته إلى العمل بالمشاهرة ، وذريعة أدارة الجامعة بأنه خدم الجامعة سنين طويلة وهذه ابسط خدمة تقدم له ..! كان يأتي إلى العمل، مرة أو مرتين فى الأسبوع بسبب تدهور صحته المستمر.. توجه خليل صوب قاعة المحاضرات وهو بكامل أناقته .. الطلاب يكنون له الحب والاحترام لذكائه وبساطته يشاركهم همومهم ويقيم لهم المنابر الثقافية أما الفتيات كان أغلبهن يطلعن إلى وسامته الملفتة للنظر، طول قامته زايد بنية رياضيه ، متناسق القسمات ، يحمل سمرة نحاسية، مرهف الإحساس، محاط بهالة من الغموض الجاذب، الطالبات يختلقن الحجج والأسباب ليطرقن باب مكتبه، لا زلن صغيرات في السن ليس لديهن أدني خبرة في الحب.. القي خليل محاضرته التي كانت بعنوان " العولمة وأثرها على الحضارأت الإنسانية" موضوع جاد ، له أسلوب سلس في طريقة الإلقاء ، مدعوم بكم هائل من المعلومات جعل القاعة في حالة من الهدوء والانتباه والترقب والمتابعة الدقيقة كان يسهب في الشرح :- من الناحية التاريخية ليست العولمة ظاهرة جديدة تماماً في

تـاريخ البـشريـة،وعلى طـول التـاريخ ظلـت الـشعوب والثقافـات والحـضارات تمـارس تأثيرهـا فـي غيرهـا نـاشرة نماذجهـا الحضارية فـي العـالم المعروف عندئـذ، وبمعنـى مـن المعـاني معولمـة تلـك النمـاذج، ففـي بدايـة الحـضارة اليونـانيـة حـدث نـوع مـن العولمـة فرضـته الحـضارات الـسابقة، كالحـضارة الفرعونية وحضارات وادي الرافدين،على ثقافة اليونـان وصانعي حضارتها، كما أن الرومان بدورهم عولموا العالم بنشر أنظمـتهم الـسياسية والاقتصادية والثقافية، بعد أن تبنوا معطيات الثقافة اليونـانية.وفيما بعد تمكن الإسلام ومـا تولد عنه من حضارة من عولمة أو (أسلمة) أجزاء كبيرة من العالم، الـذي ما يزال يحمل اسم العـالم الإسـلامي، ومثـل ذلـك فعلتـه الحـضارة الـصينيـة فـي امتداداتها إلى جنوب وشرق آسيا، ناشـرة اللغـة الـصينية وآدبهـا وغيـره مـن العلوم وأنماط المعرفة والسلوك فـي كوريـا واليابـان وغيرهمـا مـن الأقطـار .. رحـب وأجـاب علــي الأسـئلة والاستفـسارات بـصبر وتـأني .. أنــه يـستعين بمهاراته، وسعة صدره وخبرته بالتدريس في هذا المجال الذي أحبـه، انتهت محاضرته خرج نحو مكتبه، جلس في حالة من الاسترخاء لعدة دقائق، أخرج من درج مكتبه كتاب بغلاف مصقول بألوانه الزاهية، كتاب يسرد تاريخ دولـة " اليمن " ذلك البلـد الـذي صـنعت حـضاراته مـن الغمـوض نفسه، حـضارات مثيرة ، سبا مأرب ، بلقيس ، الذيدية ، النظام الملكي اليمن وفصول الجحيم في معركـة بـين إخـوة الـشمال والجنـوب دمـروا خـلال احـد عشر يومـاً، مـا لـم تـدمره الحـرب اللبنانيـة خـلال احـد عشر عامـاً مـضت..! سـرد يجعل الإنـسان مصاب بدهشة المفاجـأة وبـدوخان التـاريخ الرومانـسي والـدموي منـه، طـرق خفيف على باب المكتب دخل عم جابر المراسلة بصوته الخافت، الذي ينـبض بالحنـان والدفء ويمتلئ بشحنـة جاذبة من الأبوة: صباح الخير يا أستاذ خليل

رديت بابتسامتي التي تعود ان يراها يومياً بأريحية وفى كل صباح :

صباح الخير عم جابر

سألته عن صحة زوجته وأبنائه ومستواهم الدراسي ، شكرني علي اهتمامي وسؤالي عنهم ثم أعطيته بعض الاوراق، وطلبت منه ان يسلمها لعميد الكلية، وضع فنجان القهوة الذي تعودت ان أشربه بعد المحاضرة بقربي، ثم أستأذن وأغلق خلفه الباب دخلت في حالة من الأستغرأق في القراءة، ألتهم الحروف والكلمات بشراهة فاضحة، والدقائق والثواني تهرب من الواقع لتصبح من أعداد الماضي ، سمعت صوت شيء ما تحرك أمامي، أنزلت الكتاب من أمام وجهي، أن تنشق الأرض وتبتلعني ليس هذا بالأمر الغريب، أن تسقط السماء علي الأرض هذا أيضا لم يعد أمرٍ غريباً.. يا الهي كيف دخلت إلى مكتبي دون ان أشعر بها ؟ كيف استباحت لحظة من زمن أستغرأقي دون ان تحتويني رائحة عطرها المميز..؟

ردت بهدوئها البارد المنظم : صباح الخير أستاذ خليل .

رديت وأنا أتمنى أن يسعفني الواقع بحلم بهذا الجمال: صباح الخير إيڤانا، تفضلي بالجلوس ..

جلست ثم فتحت حقيبتها ، أخرجت كتاب ووضعته أمامي قالت بنبرة فيها شيء من التوتر: أهديك هذه النسخة من ديوان أشعاري الأول .

رديت: وأنا لا زلت مصاب بحالة من الارتباك، شكراً على هذا الاهتمام

ردت وهي تحرك شفتاها تلك الشفاه التي تحلق بي إلى ما وراء سموات الإثارة: كل ما في الأمر لا أريد ان يهتم بكتابتي ناقد غيرك ويحتوي مفردات نصوصي ..

رديت في دوأخلي:- يا الهي أن الأمر اليوم خارج عن نطاق تحكمي، أن الهجوم المباغت دائماً يجعل الإنسان في حالة من الدوران مثل دراويش " المهدي" على أرض المعركة، رديت وأنا أحاول ان أستعيد توازني من أثر المفاجأة: أسف لم أطلب لكِ شيئاً ماذا تشربين ؟

ردت: لدي رغبة فى أن احتسي فنجان قهوة معك خارج الجامعة، لكنك في حالة من الانشغال..!

رديت وأنا أطمئن على كل أسلحتي وحواسي حتى أبقيها في حالة استعداد لاقتناص هذه الفرصة: ليس لدي محاضرة ، أجلس في المكتب أقراء فقط محاولة مني في جعل الوقت يمر وليس لدي مانع من هذه الرفقة الجميلة .. خرجنا من الجامعة متجهين نحو مكان هادئ ، أجلس فيه مع امرأة تحيطني بعبير عطرها الصباحي، يجب أن أقراء معها كل قواميس العشق، وأحفظ كل الكلمات التي يجب ان تقال لامرأة تعشق داخل نصوص أشعارها فقط .. زحمة المرور ومضايقات "الركشات" التي كادت أن تفسد علينا صفو هذا اليوم، الأغرب أن الهنود يصنعونها فقط لدول العالم الثالث أنهم يصدرون لنا الفوضى !! كنت أشعر بنظراتها وهي تحتضنني بدفء جفونها موسيقى حالمة تصدح من جهاز الأستريو، كانت تصف لي الشوارع ، وكان على أن أصف لها إحساسي وحالات هذياني، مثل مريض تعلق بطبيبته .. أوقفت العربة أمام مطعم " مدام فود " لم أكن أعلم بوجود مطعم في هذا المكان فكثيراً ما أسلك هذا الطريق أحياناً الحياة تشغلنا من التفاصيل الصغيرة، التي تهبنا بعضٍ من السعادة، اصطدمت بنا نسمة باردة ونحن نعبر مدخل بابه الزجاجي القاتم، تنبعث من المكان إضاءة خافتة المكان في حالة من الرومانسية والهدوء والكسل اللذيذ، بسبب موجة الحب التي تجتاحه، جلسنا

في أحدي الموائد.. لقد كانت رهبة المكان تطغى على إحساسي وتضغط أفكاري..كان المكان مخادع بديكوره البسيط الذي يركز علي ألوان المفارش الزاهية، وموسيقاه الهادئة وخدماته العادية، لكنه يصيبني من أول مره بعشق المكان، توجد أماكن نعشقها من أول وهلة، وربما أنها خدعة الضوء والألوان، بالمكان عدد قليل من الزبائن جميعهم في حالة من الإعياء بسبب حالات العشق التام... وضع النادل أمامنا قائمة الطعام والمشروبات، أخرجتني إيقانا من حالة التوهان وفاجأتني بسؤالها: ما رأيك في هذا المكان؟ رديت:أشعر بأمان نفسي هنا.

تناولنا قهوتنا وسط همسات العشاق، وموسيقي قادمة من سقف المكان تأجج المشاعر، كانت تصرعني بضحكاتها العذبة ، امرأة تجذبني نحو دفئها أريد ان أموت وادفن داخل جسدها، تحدثنا في الكثير من المواضيع واقتربنا من بعضنا أكثر وأكثر سألتها عن الأماكن التي كنت أرتادها في الماضي، انشغالي في الجامعه بالعمل والزحف العمراني جعلني غير مواكب لسير الحياة هنا.. سألتها عن أشهر مكان فى هذه المنطقة أنه مطعم " الحاتي "، الذي له خصوصيته المعروفة في تقديم وجبة الدجاج المشوي علي الفحم والمقلي على الزيت، وكان أغلب رواده من الوزراء ونجوم المجتمع الذين لم نكن نستطيع النظر لهم إلا بعد النظر إلى أعلى..

قالت: أصبح اليوم هناك، سلسلة من المطاعم حول هذا المطعم.. ولقد تغير شكلها الخارجي ، بعد ان منعت المحليات الشوايات من وضعها خارج المطعم وتمت أزالتها ووضعها بالداخل...!

رديت باستغراب من هذا التصرف :لماذأ ؟

ردت: بعد برهة من الزمن، هناك من يقول منعاً للتلوث البيئي، وآخرون يتحدثون عن أحد أصحاب النفوذ السياسية ، لم يترك له الآخرين قرار يتخذه، قرر أن يزاحم البشر في طعامهم ؟! وآخرون يقولون نسبة لمشروع " الخرطوم عاصمة الثقافة العربية " لا أعرف ما علاقة الدجاج بثقافة العرب ؟

رديت بعد أن تعجبت من السياسات التي تقتنع بها السلطات المواطن، لا زالت تعامله بغباء، كأنه طفل لم يبلغ الفطام، في جميع دول العالم المتحضرة توجد فيها شوايات علي الهواء الطلق ما الضرر في ذلك ؟

ابتسمت بتهكم وأجابت: لا أحد يعرف حقيقة هذا الأمر ما عدا السلطات

رديت: عندما يصبح الصراع علي السلطة بطرق غير أخلاقية يصبح المواطن هو ضحية هذه الادوأر القذرة ..

أخذت إيقانا رشفة من فنجان قهوتها وردت: كيف يتسنى لك أن تقرأ أفكار هولا الساسة وهم يمارسون حياة أخرى أكثر سرية ، أرصدتهم سرية ؟ وأرقام لوحات سياراتهم سرية، وعلاقاتهم سرية.. ؟

رديت وأنا في حالة سكر من النشوة بسبب عينيها التي تجذبني نحو عمقها، دوامة لا تقاوم لاشيء بعد الغرق: السياسة سلطة خطرة وسلاح ذو حدين هناك من يتعامل معها بحكمة وهناك من يستغل سلطته ويمارس الكبت والقتل والتشريد وفي النهاية أنها السياسة... لقد كانت السياسة هي الهم الأكبر في حديثنا لماذأ هذا العداء المستفحل بين المثقف والسياسي ؟ ربما لأن المثقف بطبيعته يدخل ويكتشف المناطق الخطرة في عالم السياسي دائماً . وهي الطغيان والاستبداد .. أما السياسي يريد تهميش وقمع المثقف بشتى

الطرق لأنـه يشكل هاجس للسلطة وأعلام وطنـي خطر .. أنهم يريدون ان يعيدوا تلك العصور التي تمرغت خطاءً في تاريخنا المضي تمدح الوالي بقصيدة ، ينثر لك بحفنة درأهم علي قدميه، تهجو الوالي ينفيك أو يجعل رأسك بين النطع والسيف، والتاريخ ملىء بمثل هذه المهازل.. قلت في داخلي لماذأ انا حزين إلى هذا الحد ما دام ، الآخرون يقيمون للسعادة حفلات رقص في مواخير السياسة ؟ قضيت أجمل ساعات مرت في حياتي بالرغم من تطرقنا للمواضيع المملة، لكن وجودها كان الحلم الذي تحقق، خرجنا من هدوء المطعم وبرودته إلي شمس حارقة، وزحام من السيارات، أوصلتها إلى " مركز الدراسات السودانية "

قالت: منذ أسبوع وأنا احضر الى المركز وابحث في أرشيفه عن ملحق ثقافي لأحدى الصحف اليومية، التى نشرت فيها أحدى قصائدي بعد أن ضاعت الأصل وسط اهتمام الصحف بإعلانات شركات الاتصالات، واللميوزين !!

طلبت مني أن أهاتفها اليوم مساءٍ وأن أختار المكان الذي نلتقي فيه، ودعتني بعد ان سحبت يدها من قبضة يدي .. يد ناعمة بضة مثل جسد طفل حديث الولادة أصابتني برعشة نشوة خفيفة سرت في جسدي ، غمرني أحساس راقص أفريقي يفجر الفرح والبهجة وسط رهبة الموسيقي وشوق الجسد، أنها شهوة مؤجلة إلى حين الانفجار.. اتجهت نحو مكتبي، نظمت بعض اوراقي ثم حملت معي ديوان أشعارها اتجهت، نحو منزلي وكأنني على موعد مع امرأة يهفو لها القلب و يقودني الشوق نحوها من دون وعي.. كانت مسافة الطريق من الجامعة إلى المنزل، أثارة بصرية نحو اللوحة المرسومة على غلاف الكتاب ، تطغي عليها الرمزية مثل أشعارها، حركت

جمود جسدي بحمام ماء بارد، وعدة دقائق من الاسترخاء تناولت ديوانها الشعري بغلافه الجذاب الذي أعطاني أحساس بفخامة العمل، وعلى وسطه لوحة لفنان مغمور من جيلها.. عبارة عن غرفة فارغة تتوسطها امرأة ذات ملامح مشوشة غير واضحة والغرفة تبث شعور، قوي بأنها مكان له قدسية خاصة، لوحة تجسد صوفية المكان واتحادها مع رمزية وغموض ملامح الأنثى، مثلما قال ذات مرة " أبى حيان التوحيدي " ان المكان إذا هو بين سطح جسم الحاوي وانطباقه على الجسم المحوي .. وقع نظري فجأة علي إهداء في الصفحة الثانية بعد الغلاف، ممهوراً بخط أنثوي رقيق " لا أعلم سر هذا الاندفاع نحوك وأي قوة تلك التي تدفعني نحوك !! لا أستطيع ان أقاوم حضورك " يا الهي أنها تمارس إرهابها نحوي وتصيبني بالدهشة والفزع العظيم، بكلمات جملتها بتوقيعها.. بدأت في التهام إشعارها بشراهة جوع ازلي .. وأخبئ بصري في دفء سطورها، وبين سواد الحروف التى تستبيح مساحة البياض . كلمات خارجة عن اللاوعي لغة طازجة مترعة بنبيذ الأنوثة .. أشعار تصيبني بالدوخان ، لغة خارجة من عوالم شاعرة، لها سحرها وجاذبيتها مثل مقولة " ابن عربي " أن ما لا يؤنث لا يعول عليه .. فنحن شعب يؤمن بقداسة المرأة علي مر العصور والحضارات ، وعندما دخلت الديانة المسيحية إلى أرض" النوبة " عن طريق الكنيسة " القبطية " لقد أتخذ " الأقباط " والكنيسة " الأثيوبية " القديس " جورج " حاميا لهم في حين اتخذنا نحن السيدة مريم العذراء مع قديسات أخريات هن القديسة " آنا " و " ديميانا " حاميات للكنيسة " النوبية " ! رغم ان الكنيسة القبطية هي أصل الكنيسة النوبية، إنها سيادة المرأة روحياً ومنذ اللبنات الأولى على شكل حضارتنا، لغة طاغية أسست مرحلة خلق نصوص شعرية جديدة، احتوتني عبرت بي إلى كل الأزمنة والأمكنة البعيدة، وفجرت

عالم من الأساطير لغة تقيم علاقة حميمة، مع جسد ينقاد بكل الحواس، لغة شرسة تقتل وتمزق وتسلب، كل ما في طريقها، قصائد تبحث عن مغامرة ومحاولة اكتشاف قيم جديدة وسلطة نصية جديدة.. مثل مكان نائي معزول لا قيمة له يستدرج الآخرين لاكتشافه، فالشعراء يختارون الأماكن التى تليق بهم، بمعجزاتهم، ولغتهم، وأحلامهم، وأساطيرهم .. لا توجد في قصائدها بطولات وملاحم ، وحدها القصيدة تأتي مثل غمامة محملة بالأغنيات، تعبر مدن عتيقة، مثل طيور بيضاء تهبط من السموات السبع .. وتجعل المناخ حميمياً أليفاً يشع ببريق من القداسة، أنها نصوص تبوح بإسرارها وتمارس تجليات وجنون جسدها، بشوقه، وعطشه، في غرفة نوم إشعارها، لا تنفصل الصورة الشعرية في قصائدها عن قضايا الشعر الكبرى، الابداع والرؤية الشعرية الحاذقة، التي تستشرف المستقبل وتكشف معالم نصوصها الغامضة، تختزن في ذاكرتها الحاضرة تجربتها الفردية والجمعية نحو الحياة، تمتلك لغة سلسة تهيم حولها أشباح الاساطير والرمز، مبنية على اتصال بالجذور رغم انها عملت على تهديم الايقاع الداخلي للشكل الكلاسيكي للوزن، واستعانت بمصادر موسيقية حرة مفتوحة على الطبيعة والحياة البسيطة، وأثرت القصيدة بمزجها المتجانس ولملمت تشظي القصيدة في وحدة متماسكة، وباحت بأجمل وأبرز مقومات الحداثة، لديها قصائد تكتسب من جسدها دلالة شبقية وبتمجيد الجسد تمنح الحب بحركة سكونه القوة، وبالقبلة المنشودة ترحل الى عالم يولد بضربة ساحر، تدخل الى فضاء قصائدها في مساحات شاسعة من الالم والعذاب اللذة بدون مقابل، مجازي جنة من الورود الازهار وقبلات من شفاه تخلق نشوة مكتملة، لتذوب في عالم من التوحد والشفافية كارتباط الضوء بالشمس، تحمل في دواخلها نزوة الروح بقوتها الخارجة عن قانون الطبيعة، تمنحها الحق في القتل والافتتان

والإغـواء لأسـاطيرها، محاولـة منهـا لكبـت ألامهـا لحـين الانفجـار الابهـى والأجمل لتستنطق صمت الحياة، بدأت فى وضع خطوط بقلم الرصاص حول بعض الجمل .. مثلما قال ذات مرة الكاتب "أرنست همنجواي" لا أستخدم إلا قلم الرصاص فقلم الرصاص له ايجابياته .. جمل وكلمات عن الحب والموت والخلق ، نادراً ما تصادفك في حياتك اليومية، انـه سقوط مميت في هاويـة اللغة، كلمات حبلى بأطفال جميلين يتخذون الصمت عالم تكوينهم، هل الشعر يحمل الحياة بدوافع أخلاقية أو سياسية ويثقل جناحيه بمهمات نبوئيـة ..؟ بل يهبط بنا إلى اسفل الكأس إلى أخر موضع فى الروح إلى ضعفها المتخفي، أو قبحنا الكامن فى دواخلنا، أو خوفنا الذي نحـاول أن نخبئـه أو نتملقـه، صوت هاتفي الجوال أخرجني من حالـة صمتي المجيدة ومن شـهوة اندهاشـي نحو قدسـية الـنص، المتحـدث صـديقي معتـصم يريـد أن يعـرف مكـاني قلـت لـه: موجود في المنزل

قال وهو يضحك تلك الضحكة التـي خلفهـا كم هائـل مـن الألأم: سوف أحضر إلى منزلك فى التاسعة مساءً ومعي صديقة .

رديت: سوف أكون في انتظارك..

أغلقت الجوال. معتصم ضعيف أمام الخمـر والنـساء والـسياسة، وهو يفضل دائماً أن تقع فـي شـباكه المـرأة ذات الجمـال الطـاغي والثقافـة العاليـة، أنـه يبهرهن بثقافته العاليـة فكـانوا يستسلمون لـه ثم يسقطن بـين يديـه مثل مـدن محاصـرة الواحـدة تلـو الأخـرى ، حتـى أصـبح فـي طغيـان "هولاكـو"، ورغمٍ عن ذلـك كـان يـردد مقولـة " بتهـوفن " ربـاه مـا سـر هـذه التعاسـة العظيمـة...؟

كان "بتهوفن" يردد هذا السؤال دون أن يجد له إجابة ، أنه ألم العبقرية لا أحد يدري بأنه كان يتألم بقسوة، وهو يدخل مرحلة الخلق الكامل لسيمفونياته التي تعزف في الكنائس، وبين النبلاء في أروقة القصور، ووسط قبلات العشاق.. هكذا كان معتصم يحاول أن ينسئ ألآمه علي حساب سعادة الآخرين، ويبدع في محاولة لنسيانها ، كانت المرأة قارب ليلي يعبر به بحار فجره، ولأن عشقه هو وقود ألآمه انه لا يحتاج لامرأة تحمل أخلاق وقيم ومبادئ، بقدر ما يحتاج لمضحية تهبه الحب وتشعل ذكائه .. رن تلفوني مرة أخرى، يا الهي أجهزة صغيرة الحجم، تخدم البشر وتزعجهم، أنها الراحة مقابل الاستهلاك، المتصلة إيڤانا جاء صوتها عبر الجهاز بوضوح جميل: مساء الخير أنا آسفة كان على أن أنتظر منك مكالمة لكنني أريد أن أطمئن عليك .. ماذا تفعل الآن ؟

رديت: جميل أنك اتصلت كنت فى عالم أخر بعيد، أقرأ قصائدك آه كادت أن تنسيني موعدي معكِ.

ردت: أتمنى أن تكون نالت إعجابك

رديت: أنها أخر مفاجأة أقيس بها أعوام عمري لأدبي، سوف أتقاعد عن ممارسة النقد بسبب لغتكِ

أظهرت على ملامح وجهها ابتسامة ساحرة: لا لن تتقاعد، ستصبح في العشرين من العمر فالنقاد وعلماء الآثار يعملون بصبر واكتشافاتهم الكبيرة دائماً مخيفة..

رديت: إذن وحدي العق جراحي !

ردت: يجب أن أجد لجراحك شفاء، حتى لا أفقد ناقد بقامتك، بالمناسبة هذا ما اتصلت من اجله أين المكان الذي سوف نلتقي فيه...؟

رديت بدون أن أفكر أو أبحث عن مكان فى الذاكرة : ما رأيكِ في منزلي ؟

ردت: ليس لدي مانع ما دام انه اختيارك ..

رديت: أذن سوف نلتقي في مطعم " مدام فود " عند الثامنة ثم نأتي إلي المنزل لأن لدي بعض الأصدقاء أريدك ان تلتقي بهم ..

ودعتها ثم نظرت إلي ساعة الهاتف كانت تشير إلى السابعة مساء لا زال هناك وقت كاف ، تناولت بعض الصحف للاطلاع علي أحداث اليوم، غالباً ما أطالع الصحف اليومية مساءاً لا أعرف من أين أتت هذه العادة، أقراء صحيفتي " الأيام " و" الصحافة " ربما لأن والدي كان لا يقرأ غيرهما، ربما هي محاولة لاستحضار الزمن الجميل، واحتمال لوجود بعض الكتاب الساخرين الذين تصبح مقالاتهم جزء من رأي المواطن، هناك صحف تخاطب العقل الإنساني.. وهناك صحف لا تصلح ألا لتغليف زجاجات الخمر..! بدأت الصفحة الأولى العناوين البارزة كلها تتحدث عن محادثات السلام بين الحكومة والحركات المسلحة بدافور ، النقاش والمداولات متعطلة في بند "اقتسام السلطة" ومساعي جادة من الحزب الحاكم بعمل شراكة مع رصيفه حزب المؤتمر الشعبي ...!!

أنها أغرب اتفاقية سلام فى العالم . أنهم لم يتطرقوا إلي أولويات المواطن، حتى جلسوا يتقاسمون السلطة والثروة هناك الحريات العامة والتعليم والصحة والتنمية والفساد والمحسوبية والاختلاسات في المرافق الحكومية .. أغرب شراكه بين أبناء وطن وأحد تمت في مناخ سياسي قذر وغامض، همشوا الجميع ...المواطنين والأحزاب ومنظمات المجتمع المدني وشهداء قضايا الوطن الكبرى، قديماً قال العرب في أمثالهم " خذوا الحكمة

من أفواه المجانين " أن نظام حكم حزبين لدولتين صناعيتين مثل بريطانية، و أمريكا، تقوم على الديمقراطية والشفافية في التعامل مع الوطن والمواطن ... خذوا الحكمة من الاستعمار !! وفى صفحة الأخبار العالمية الحكومة الأمريكية تبحث عن مخرج من مستنقع العراق.. والجماعات الإسلامية المتطرفة تنشط بقوة بسبب التدهور الاقتصادي للدول الإسلامية، والحكم الدكتاتوري، والغلو في الدين والتفسير الخطاء للمنهج والخطاب الديني، ولكن أغرب خبر يصدمك ويعيدك إلي واقعنا المرير" مجموعة من المهاجرين الغير شرعيين يتعرضون للتعذيب من قبل سلطاتهم العربية..! أنها الحكومات العربية ، لا تستطيع ان تعطيك القليل من الخبز وبعض من الحرية ، وتمنعك من البحث عنه في أرض الله الواسعة، أنها ديكتاتورية عقيمة تعيش في جينات حكامنا .. وأنهم يسيرون أمور البلاد والعباد على حسب مزاجهم وعلى حسب المناخ، أحياناً يسجنون ويعدمون وينفون الشرفاء من أبناء الوطنه، وأحياناً يصبحون حمامات سلام وادعة ينددون بالإرهاب ويقيمون مؤتمرات الصلح ويشاركون في مكافحة الإرهاب ! لا أعرف من أين أتوا بهذه الجينات ؟! وطن يصيبنا بالغثيان بفواجعه وخسارته الكبرى وضعت الصحيفة بعد ان شعرت باني لا أستطيع أن أتحمل هزائم الشعوب، صعدت إلي العربة وانطلقت نحو "مطعم مدام فود" ذلك المكان الذي أصبح يتوج لقائتنا برومانسيته الجاذبة وهمسات العشاق تحلق في فضاءاته، وجدتها جالسة في هدوء وتأمل وسط صوفية المكان .. كأنها ناسك يؤدي فروض الطاعة والولاء باسترخاء تام اقتربت منها في هدوء: مساء الخير إيقانا .. قطعت تأملها ثم نهضت وردت وعلى ملامحها بعضٍ من التوتر: مساء الخير ما الذي جعلك تتأخر ؟ كنت قد تأخرت عشر دقائق عن المواعيد.. المرأة عند الغضب كقنبلة مهيأة للانفجار في أي لحظة.

رديت وكأني أطلب الصفح: السبب هزائم الشعوب .. لم تفهم ما أقصد ، خرجنا بسرعة حتى لا نتأخر علي معتصم فتصبح كارثة أخرى، تحركنا نحو المنزل وعطرها " الباريسي" العشبي الذي يفضح مدى أنوثتها ويدخلني في حالة تداعي لنص شعري دائماً تسقط القصيدة بدون موعد سابق، بدون مناخ ينذر بهطول مطرها:

يا عطراً يحطم كل

حواجز الزمن القادم

ويثير كل النعرات العشيقة في جسدي

يحطم كريات دمي البيضاء

يفجر كل الشهوات الأخرى

يفقدني ذاكرتي يلتهم عقلي

يحرق كل كتاباتي وأشعاري

يا عطراً يضخم إحساسي بكل الأشياء

نظرت إلي والدهشة تكسو ملامحها ردت: يا الهي كم هي جميلة كلمات رائعة ، فأنت دائماً تفاجئني بزخم دواخلك الجميلة . رديت: عادة لا أكتب الشعر ألا عندما يستفزني الجمال ويدخلني إلي مرحلة الدهشة، عندما يصبح الإنسان في حالة من الوجد والهذيان ويبني علاقته مع الجمال، عطرٍ أو أنثي ، يصبح خارج محطاته الواقعية ويلج عبر أبواب خفية، إلى عالم من الشفافية، أنها سلطه الشعر ضحكت بعزوبتها المعتادة، ثم إومات وهزت رأسها بتعجب ردت: أتنتقد شعرك بوصفٍ مختصر كهذا..!!

رديت:- أذكر قصة شاعر، لا أذكر أسمه الآن، بينما كان يلقي محاضرة عن أعماله وحالة الكتابة لديه، في أحدي الجامعات، وسألته أحدي الطالبات سؤال صمت له الحضور طويلاً، " كيف أصبح شاعرة " ؟ رد الشاعر وسط دهشة الحضور "عاشري كل رجال الأرض، وأشعري بعذاباتهم ولآمهم، واجعلي روحك محلقة نحو سماوات مفعمة بالمتعة، ويجب أن تصبحي مهيأة للاتحاد مع عمق البشر وكل الأمكنة والأزمنة .. فقط حينها سوف تصبحي شاعرة، نظرت لها ثم أضفت، أنت أدرى بالآم الشعر واسقاطتها على العقل.. الشعر لا يحتاج لحفل استقبال، مثلما يرى الشاعر والناقد الأمريكي(ارشيبالد ملكيش) فى كتابه (الشعر والتجربة).. أن أعمق حاجاتنا ألإنسانية لم تكن الحاجة إلى أن تجعل لحياتنا معنى بل أن نجعلها بلا معنى ...

اطلقت ضحكة عذبة، ثم نظرت لي باستغراب ردت: فقط تركتني في حالة من الذهول لا أريد أن أعلق علي قصصك التي تدخلني بها إلى عوالمك الغريبة... رديت : على الإنسان العادى أن يواجه الزمن لحظة بلحظة وبحس كبير من المسؤولية،بينما للشاعر فسحة أوسع أمامه إذا إمامه كل الزمن وكل الفصول وأن الشعراء هم معماديو الروح والإنسانية وليس صانعي اللحظة العابرة ..

خيم حولنا صمت مفاجئ وأيقانا تتأمل فراغ الطريق ، كأنها تتذكر أحداث لا تستطيع ان تفارق ذاكرتها .. كم هي جميله في حضرة الصمت الذي يلتف حولها .. وصلنا إلي الحي الذي اقطن فيه ، لقد دخلت إيقانا في حالة من البؤس ، من كمية الفوضى والقذارة ، أطفال يقفزون في ماء نتن تفوح منه رائحة كريهة بسعادة ومرح .. لا تستطيع ان تفرزهم من بين الكلاب

الضالة ، هنا الفقر سيد الموقف ، والمرض والموت صفتان متلازمتان في هذا المكان ، ومصير حاسم للكثيرين يرحلون بصمت ويحملون معهم عذاباتهم . كانت تنظر إلي الشارع نظرة يملؤها الألم وأسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات ، أنهم يعيشون في تحدي اكبر من طاقاتهم الإنسانية ..

رديت: لا شي يمكن أن يفعله هؤلاء ، غير ان يتأقلموا مع هذه العوالم حتى تلك التي يشمئزون منها .

نظرت إلي بوجهها الذي اكتسي لمسه من الحزن وردت: لماذا لا يقيم الآخرون جسراً وصرحاً من المواساة لهؤلاء لتصبح الداعم لهم في الحياة وقوة لمواجهة مآسيهم ؟! لم أستطيع أن أجد إجابة لسؤالها ، فهناك أسئلة ساخنة لا يستطيع ان يجد لها الإنسان على أجابه ألا بعد أن تصبح باردة .. قبل الثورة الفرنسية، كانت طبقة النبلاء فقط من يمارسون السياسة، ما معني ان يصعد اليوم القادة والرؤساء على سدة الحكم، قادمين من أفقر الأسر والمجتمعات ويمارسون التهميش والقتل للفقراء ! ويعظونهم بايدولوجيات لا تصبح لهم خبزاً ... الأغرب أن شريحة الفقراء المنبوذة من قبل الحكام هي التي تؤمن امتيازات ومصالح السياسيين الشخصية عبر الضرائب والجبايات والترهيب ... هكذا يثري حكامنا .. هل يأتي اليوم الذي، يعترفون فيه بالخطيئة ؟ أما يتركون لنا وطن لا يعني لنا شيئاً في دواخلنا وطن ممزق بعيداً عن وجداننا !؟

لقد كان أهل العصر الجاهلي أكثر إنسانية ورحمة من عالمنا اليوم كان لكل سيد من سادتها عبداً أو اثنان ، لكن سادة اليوم يستعبدون جميع أبناء الوطن بقوة الاقتصاد هل هناك سيد أكثر إذلالٍ وطاعة من الجوع ؟ أنه زمن الانحطاط الأخلاقي، وصلنا إلى منزلي، كان حضورها مؤثر بقوة، وجمالها

طـاغي علـى المكـان، وفـستانها الأبـيض اللـون يـشع ويـسلب وحـده جمـال المكـان.. كيـف ومتـى تـم اكتـشاف هـذا اللـون ؟ انـه مـزيج مـن كـل الألـوان، يستبيح نظري عند سقوط الضوء عليه يدخلني في زهو تـأملي وأصبح مريد في حضرة اللون، بماذا يقيس التشكيليين كثافة اللون ؟ خلفية مثيرة أما لونـاً بمرحلـة الخلـق، اتجهت نحـو المطبخ لأصنـع بعض المشروبات كنت أسـمع صوت خطواتها وهي تسير فـي الـصالة، تنظر إلـى أشيائي كأنـهـا تبحث عن أدلة... هكذا المرأة دائماً تتوقع ان تجد امرأة أخرى سبقتها إلي الأمـاكن التـي ترتادها لأول مرة، كانت تتفحص أثاثي البسيط، وتتأمل لوحات منسوخة لبعض الفنانين الكبار قلت لها:أحضرها صديق كان يسكن معي منذ زمن بعيد..

ردت: أين هو الآن ؟

رديت: كان يدرس فى " كلية الفنون الجميلة " في أحدى الأيـام دخل الكليـة بعض الإسـلاميين المتطـرفين، فحطمـوا التماثيـل التـي تمثـل المـزيج القبلـي بـدعوة أنهـا"أصنـام " وهذا نـوع مـن الكفر، فتصدي لهم فعاش فـي مضايقات يومية حتى تم فصله من الكلية، وذهب إلى أحدى دول الخليج بعقد عمل " راعي أغنام "

ردت: يا الهي لم يصادفني، شعب متشائم مثلنا

يرفض صناعة وتذوق الجمال بهذه الصورة المتطرفة

رديــت : أن الفنـــانيين يقيــسون قيمـــة الحيـــاة بالمعرفـــة المدهـــشة للحياة،هكذا يعيشون مع الوقت ويكتسبون جوهرهـا النـابض،ويـصبحون أكثـر حياة وأكثر إنسانية لا يوجد فن خارج أطار الحرية إذا جاز التعبير.. بدأت فـي تأمل اللوحات بصفاء ساحر ، وقفت أمام لوحة " بيير أوغنـست رينـوأر " (السيدة ذات قبعة النورس) سيدة تجلس فـي أطـار مـن أوراق الـشجر متأملـة

نفسها، معتكفة على ذاتها على نحو طبيعي جداً ليس فيه إلزام ولا تكلف، تنظر نظرة تدل علي الاستسلام والاستجابة.. وبعض من لوحات " سيزان " عنده نجد الجهد الهائل وانكسار الفعل التشكيلي والصراع العقلاني من أجل التماسك والبقاء ولوحات" لبول غوغان " الذي رفض المجتمع البرجوازي، والبقاء في "باريس" ملهمة الفنانين، ورحل إلي" تاهيتي " باحثاً عن الفن في المناطق الاستوائية، وولج إلى الحداثة من خلال الأساطير والحكايات الشعبية، وقرأ بشغف عن ثقافات القبائل، أن لوحاته ليس مجرد تمثيل مبتذل لأحلام البحار الجنوبية، فوسط الحياة والمناخ الاستوائي، تتأرجح الكآبة وسط الألوان والفرح، تنمو بذرة الاكتئاب، ويصبح أشكال شخوصه الخارجية، تدل علي الجمال والهدوء، والأنوثة الفائقة، وكان يدعوا إلى العودة إلى الطبيعة، والفرار من الأوساط المتحضرة، وممارسة الجنس بدون عوائق، والرجوع إلي الحياة البدائية... وهناك أيضا لوحات لبعض الفنانين التشكيليين الشباب المغمورين ، ولقد كان اهتمامها بلوحات" رينوأر " أكثر من الآخرين. قلت لها: أعماله جيدة، وهو أفضل من يحسن رسم القامات، يمتلك تحديات لونية مستقلة لم يفعل أحد في السبعينات من القرن الماضي مثلما فعل "رينوأر" بالألوان، فقد كان ينفشها كالقطن وينزع منها بذلك كل علاقة بجوهر مادتها، وأعماله عامرة بأثداء الشابات....

ضحكتِ بخجل وردت: كيف تعرف شرح كل هذه اللوحات ؟

رديت: الفن التشكيلي يعتمد على النقاء البصرى والإحساس المرهف عند التأمل أنا لا أشرح لكني أشعر بحركة الألوان..

استأذنت على ان تقرأ بعض مقالاتي التي أحتفظ ببعض المسودات علي مائدة تعم فيها الفوضى . سمحت لها بذلك .. كنت أرتشف قهوتي، وأنا

انظر لها من أعلى حافة الفنجان، في حالة تأهب لإحساس جميل يدغدغني، امرأة بلون الأبنوس وبطعم الكاكاو ورائحة الهيل والقرنفل .. امرأة ذات احساس عميق مثل " أفروديت "* ولدت من زبد البحر وهبطت إلى الأرض محمولة علي صدفة محار ..

قالت: وهي تضع المقالات جانباً لديك نقد حاد لا يساوم

رديت: الناقد بقلمه مثل جراح بمبضعه عليه أن يبحث عن العلل خلف الأنسجة ، ولا يساوم بغير الجثث، أن الفنان "ليونارد دأفينشئ " أكتسب جماليات رسمه وخبرته في رسم الشكل البشري ونحته، من خلال نبشه القبور وإخراجه الجثث وتشريح جهازها العضلي، ضحكت ثم قالت: لا أعرف من أين تأتي بهذه القصص ! لكنك تبهرني صوت صفير جرس المنزل أخرجنا من حوارنا أنه معتصم ومعه صديقته "شادية" أنها تحضر إلى منزلي كثيراً مع معتصم، جريئة عندما يلعب الخمر برأسها وتمارس حريتها المتاحة والغير متاحة، أنها، ابنة ثري معروف وحيدة لم تشعر مع والديها بلحظة حب وحنان كان همهما جمع أكبر قدر ممكن من الثروة، درست في أحدى الجامعات " الأوربية " العريقة ذات ثقافة عالية وتمتلك جمال طاغي والدها طلق والدتها وتزوج فتاة صغيرة في عمرها.. ووالدتها هربت بنصف ثروة، زوجها ومدير أعماله الشاب إلى أحدى الدول الأوربية، هكذا وجدت شادية نفسها ضعيفة أمام حزن ولأحول ولا قوة لها فى الحياة، لا تحتاج للمال خرجت تبحث عن الحب والحنان في الطرقات والأحياء الفقيرة ولقلوب تمتلئ عاطفة،وجدت نفسها تغوص في عالم المتعة الجسدية والخمور، حتى تنسئ الآم لا تستطيع التحكم فيها، عشقت الحرية وضحت بأشياء كثيرة من أجلها، وأخيراً وجدت هنا ما كانت تبحث عنه، وجدت أناس برغم فقرهم

يمتلكون الحياة بكبرياء ولهم مبادئ يعيشون ويموتون من أجلها ، قالت عنهم ذات مرة : أنهم يحترمون الإنسان الذي يحمل إنسانية سامية وحب ولا تشغلهم الأخطاء .. عرفتهما بأيڤانا صافحها معتصم بالأحضان. لقاء فيه نوع من الشوق والألفة، التفت إلى معتصم متعجبا" قال: من أجمل المصادفات، أن لي معرفة سابقة بالأستاذة إيڤانا، أتضح فيما بعد بأنها عملت متعاونة مع أحد الصحف التي كان يعمل فيها معتصم، بالملف الثقافي لفترة من الزمن .. تجاذبنا أطراف الحديث في مختلف المواضيع كان كل منا يشتاق للأخر كان فى القلب حنين كبير حنين مخيف الى حد الالم .. كانت كحلم سقط سهواً في دوأخلي بوجهها الجميل الصافي .. اتجهت شادية نحو المطبخ أنها تعرف المنزل أكثر منى! أخذ معتصم في البحث داخل حقيبته ، فاخرج زجاجة خمر مستوردة " ويسكي أسكوتلندي " قال وهو يضع الزجاجة علي المنضدة :- رمز الاستعمار الخفي حرب الخمور !.. لم نفهم أنا وأيڤانا ماذا يقصد بحديثه هذا..؟ وما هي المناسبة..؟ سألته: عن ماذا تتحدث..؟ رد وهو يسهب نحو قصة طويلة بعد أن أعتذر لأيڤانا عن جرأته . قالت له بأنها تريد أن تستمتع بحديثه، كانت الولايات المتحدة الأمريكية تستورد "الويسكي الأيرلندي" بكميات ضخمة ، إلى أن حظرت استيراده وكان ذلك في أوائل القرن وعندما رفع الأمريكان الحظر كان الأيرلنديين منخرطين في حرب تحريرهم من الاستعمار " البريطاني " ومطالبتهم بإقامة دولة مستقلة من ناحية مذهبهم الديني فما كان من البريطانيين إلا أن استغلوا انشغالهم بحربهم التحريرية .. سارع البريطانيين باحتلال مكانة الويسكي " الأيرلندي " في سوق أمريكا الشمالية ثم استماتوا وقدموا وأجب التضحية ، للترويج للويسكي " الأسكوتلندي " بديل للويسكي " الأيرلندي " الآن محيت تماماً سمعة الويسكي "الأيرلندي" خسروا وطن وكسبوا علامة تجارية وأصبح العالم

كافة يعرف الويسكي " الأسكوتلندي " وأصبح مثل الجنية " الإسترليني " في شهرته هكذا الاستعمار لا يخسر أبدا .. نظرت إيڤانا إلي معتصم وقالت له: كيف تعرف قصص وتاريخ صناعة الخمور وأنواعها ؟!

رد بسخرية لاذعة: عليك أن تخلصين في حب الأشياء التي تريدين معرفتها، أخرج زجاجة أخرى، ثم رفعها عالياً وهو يردد:- الوأين النبيذ أنه للسيدات الجميلات الحالمات الباحثات عن الحب .. أخذت إيڤانا تضحك لموقفه المرح في طريقة تقديمه للشراب .. ثم نظر إلى شادية التى كانت تداعب خليل وهي تضع على المائدة بعض الأواني التي تحتوي علي قطع من الثلج، وبعض المخللات والاجبان وعدد من كؤوس الشراب أنها بارعة في ذلك، ورفع زجاجة الخمر عالياً فى الهواء كأنه خارج منتصراً من معركة شرسة، مستشهداً بمقولة الشاعر أبو نواس :- ألا فاسقني خمراً وقل لي هي خمرُ/ و لا تسقيني سراً إذا أمكن الجهرُ.. ضحك الجميع لموقف معتصم الذي دوماً تسخره لنا الصدفة لكسر جمود هذه الحياة الرتيبة إلى حد الموت، أحاط بنا مناخ مفعم بحميمية جميلة ومؤثرة، فبوجودهم معي الآن اكتملت سعادتي، أحبهم وأحب كل شيء جميل وبشع في دواخلهم، ولا أمتلك غيرهم أنهم عالمي الصغير الشفيق الفوضوي .. لم أحاول أن أسأل معتصم عن مصدر هذا الشراب المستورد كنت أعرف بأن شادية هي التي أحضرته، فهي تقيم علاقات مشبوهة مع أشخاص من مختلف الجنسيات " دبلوماسيين " عمال إغاثة ، مدراء شركات، ومستثمرين قادمون من وراء البحار، وهاجسها الوحيد في الحياة أن تبيع جسدها، ليس مقابل مال بل مقابل ان تستمتع برفقة محترمة ...أن يحترم الرجل جسدها ويحرره من كبته...!! دارت الكؤوس ، بدأت السياسة والحديث فيها أمتلك المكان ، أنها عادة في جيناتنا نحملها بالوراثة ، فمن مثل هذه الجلسات كانت تتعاقب الحكومات

ويتم تعيين الوزراء ويخرج الفنانين إلى الشهرة !.. معتصم يجد دائماً ما يليق به في متاهات السياسة لا اعرف لماذا لم نتعلم من الانجليز غير حب السياسة وكرة القدم...؟؟ أليس، كان من الأجدى أن نتعلم منهم مهارات الإدارة، لوصلنا مرحلة الهند وجنوب أفريقيا مجتمعتين، وكان نقاشه مع إيڤانا يدور حول ملف السلام وبنوده، أظهرت إيڤانا مدي سعة عقلها وعمق ثقافتها ولديها كم هائل من المعلومات، لا أدري من أين أتت بها ؟ امرأة تثيرني بثقافتها أريد أن أقودها نحو فراش دافئ لأراجع معها قواميس لغة عشقها وجسدها المغتسل بأوزان قصائدها.. هناك علاقة خفية بين الثقافة العالية والإغراء...لماذا المرأة المثقفة تثير شهوتنا المختبئة ؟! حاولت الهرب من جدل السياسة إلى دهاليز الأدب فهو المجال الوحيد الذي يبني لنا مدن مشيدة من أحلامنا لكن ماذا نتوقع من السياسة والسياسي... وبعد جدل أستمر طويلاً وسط رشفات الكؤوس ، توصل معتصم وأيڤانا على ان وحدة الجنوبيين والشماليين تصان في حدود أقرار حقهم الشرعي في نوع الحكم الذي يريدونه، أنها مشكلة تجمعات على طول امتداد الوطن وهي ليس قاصرة علي منطقة واحدة أو إقليم.. هناك تذمر أقليات لم تجد حظها من التعليم والصحة والرفاهية الاقتصادية ، عانت التهميش ، وظهرت الآن علي السطح تطالب بحلول جذرية لمشاكلها .. والحكومة أصبحت مثلا طائرا النعامة تعدو بأقصى سرعة وترفرف بأجنحتها في الهواء وهي تحلم بالطيران.. انتقدت إيڤانا الأحزاب وقالت: ان الأحزاب من صناعة الاستعمار والدليل علي ذلك منذ الاستقلال ولم تستطيع أن تطور سياستها وأن تجدد وتواكب الحياة ببرامجها، هناك طرق صوفية أصبحت أحزاب سياسية وهناك أحزاب سياسية أصبحت دينية .....!

تدخلت شادية بعد أن بدأ الخمر يسري في عقلها وقالت مستشهدة بمقولة " كارل ماركس " : أن التاريخ لا يعيد نفسه إلا على شكل مهزلة، ما الذي حدث بعد أن امتلكنا وطن بمساحة مليون ميل، وأكثر من خمسمائة إلف عام حضارة خصماً من التاريخ البشري... كيف يموت أغلب الشعب بسوء التغذية والملارياء والحمى الصفراء فى زمن النفط والثراء فجأة بدون مبررات..؟ أتى الينا جيل لا يحمل ذرة حب لهذا الوطن كأنهم قادمون من كوكب أخر... أقاموا مع الوطن علاقة حب أشبه بقصص الحب الشرقية، مؤثرة تمتلئ بزخم التضحيات والدموع والآهات ، ثم أتى الزواج شرقياً طابعاً ومذهباً، فخرج المولود مشوهاً في هذا الجيل، يحمل في دواخله كل الحقد الإنساني يبيع كل شيء من أجل مصلحته الشخصية ، ضميره ووطنه ، كل شيء لديهم قابل للبيع...!!

قال معتصم وهو يبتلع رشفة من كأسه بتلذذ: كل أشيائنا متشابهة أفراحنا وأحزاننا حتى قضايانا، فبعد فشل علاقتنا مع معشوقتنا السابقة " القومية العربية "والآن وجدنا معشوقة جديدة وهي" القضية الفلسطينية"..!

ردت إيڤانا وهي تنظر نحوى بنظرات فيها ملامح شهوة هادئة لم اعتادها من امرأة: أذن هل هو استسلام لواقعنا السياسي المخجل...! أم أنه الغباء المستفحل في سياستنا منذ ان أدركنا معنى السياسة..؟!

تدخلت رغبة من نفسي في أن أنهي هذا الحديث الذي يؤثرني: ليس هناك غباء في أمة من الأمم، فقط كيف نؤمن بقضايانا .. وأن نهتم بمسؤولياتنا اتجاه وطننا ، فى الغرب شريحة الأغبياء هي التي تصنع الحضارة " توماس أديسون " كان يصفه زملاؤه الطلبة بالأبله وكان والده

يعتقد بأنه ذو دماغ فارغ وغبي .. وكذلك العالم " أسحق نيوتن " وكذلك الكاتب الألماني " برتولد برخت " كان فاشلاً في بداية حياته .. لكنه استطاع ان يصنع من فشله نجاحاً باهراً حتى احتل مكانه، برنارد شو، شكسبير ومللير، وجوته مجتمعين، جميعهم كانوا فاشلين في بداية حياتهم وفي دراستهم للمناهج المنتظمة، الأغرب أن درجة اهتمامنا نحن بالمناهج المنتظمة بدون أبداع أوصلتنا إلى درجة أصبحنا الدولة الوحيدة في العالم أغلب وزرائها يحملون درجة دكتورا.. من أين أتوا بهذه الدرجات العلمية...؟؟ " رونالد ريغان " كأبوي خارج من أضواء هوليوود أدار اقتصاد أكبر وأعظم دولة صناعية وعسكرية في العالم .. وقبله قدمت " بريطانيا " لكرسي السلطة " جيمس كلاهان " حين كان ينافسه على الرئاسة خمسة من خريجي جامعة " أكسفورد " خلف " لهارولد ويلسون " وهو الذي درس فى جامعة لا تكاد تذكر .. علينا أن ندخل ألان مرحلة الإبداع حتى يصبح الجيل القادم جيل عملي يتسم بالقوة لا يحب اللغو وتسيير مسيرات ألإدانة فى وجه الغرب، مثلما حدث في لحظة فحولة من احد إسلافنا كانت سبب في سقوط مملكة سنار، تلاشت على يد "إسماعيل باشا" إبان الغزو التركي، سقطت برومانسية قاتلة، كان موتها أشبه بموت إنسان في لحظة خدر، أشبه بذوبان جبل جليدي، استباحها الأتراك العثمانيين بعد ان سمعوا أجمل موعظة ترهيب فى تاريخ فتوحاتهم الحربية، عندما بعث لهم السلطان " محمود ود عدلان " برسالته الشهيرة البلقاء " لا يغرنك انتصارك على الجعليين والشايقية، فنحن الملوك وهم الرعية، إما علمت ان سنار محروسة ومحمية، بصوارم وقواطع هندية وجياد ادهميه ورجال قادرين على القتال بكرةٍ وعشية" لحظة فحولة إزالة دولة من الوجود..!!

نظر معتصم لأيڤانا وقال: منذ الطفولة وهو صديقي، فهو أما متساهل في رأيه أو متطرف، لا توجد لديه نظرة وسط للأمور .. ابتسمت إيڤانا وكانت ترمقني بنظرة فيها شيئاً من الإعجاب ومشحونة بانفعال غامض، تحاشيتها فالخمر تسكرني لكن بريق الشهوة في العيون، يدخلني مرحلة الهذيان ..

رديت لمعتصم: أن تؤمن برأي وتحارب العالم من أجله هذا ليس تطرف لكن أن تعيش بدون رأي أو قضية وأن تمارس اللغو في وجه الآخرين . وأن تموت علي حافة الحياة مع أخطائك هنا يكون التطرف !! قلت له مستشهداً بمقولة المفكر الفرنسي (إيمي سيزار) :- لا أحد يحتل ببرأة، ولا ينجو المحتّل بدوره من العقاب، إن الأمة التي تبرر الاحتلال، أي القوة هي أصلاً حضارة مريضة مشوهة أخلاقياً، ما بين حصيلة وأخرى، ومن إنكار إلى أخر تفتح المجال، دون أدنى مقاومة أمام جلّادها، أقصد عقابها الخاص) شادية أنتشت ببعض الكؤوس وكانت تحاول ان تقنع إيڤانا بكاس نبيذ " وأين " وكانت إيڤانا ترفض برقة ولطف، ولكن بعد عدة محاولات وهجوم مكثف من شادية وبجميع الاسلحة الموثرة نفسياً، وقعت إيڤانا في فخ النبيذ وشربت كاس مراوغ بتلذذ فاحمرت شفتاها، ثم تحدثت عنه بإسهاب، فأدركت أنها ليست المرة الأولى التي تتذوقه، فالمرأة تستحي من الكأس الأولى مثلما تستحي من القبلة العشقية الأولى، وبعد الكأس الأولى تصبح مشروع تحدي لطريق آمن بدون أبواب ونوافذ مغلقة نحو الحياة...وتخرج من جسد كائنها الغامض مشرعا بهاجس الحب.

قالت شادية بعد أن شعرت بنشوة الخمر التي غالبا ما تعطيها جرعة من الجرأة:- لماذأ لا تبدأ كل الأمم بأدواتها الموثرة من ديانات وثقافات وحضارات من أجل المحافظة على الجنس البشري ، وعمل جغرافية جديدة بدون حدود وخرائط مدعومة بالحب الذي هو أكبر قوة تمنح السلام ؟!

تدخلت إيڤانا بابتسامتها المشرقة وبريق عينيها لأزال يبث وميض دفء شهواني خجول وقالت: لن يحدث والغرب يمارس أطماعه نحو أفريقيا من أجل ثرواته دون روحانياته أعطانا ديانة تحمل جمال الأخلاق وفكرة الخلاص الأبدي، ثم استعملونا نحن الأفارقة كبغال لحمل أمتعتهم لاكتشاف أراضينا .. كيف يكتشفون أراضي مكتشفة من قبل سكانها الأصلين ثم يسمونها بأسمائهم.. !؟ تدخل معتصم وقال: هذا الحديث ينطبق أيضا علي شبه الجزيرة العربية عندما حضر لهم رجل، من اقصى بقاع الأرض " لورانس العرب " كيف لأمة امتدت فتوحاتها حتى الصين* يستبيحها رجل وأحد بحكمته فيوحد شمل القبائل المتحاربة . أبناء عمومة بعض بينهم أنساب ووحدة لغة ودين وأرث، يحارب من يحارب، وينصب من ينصب، من الملوك والأمراء، ويترك العرب حتى يومنا هذا يتنافسون حول العقالات وتدجين الإبل... أذا كانت الحضارأت تقام ببورصة تدجين الإبل والخيول لأصبحنا اليوم من أعظم الأمم، لهيمنا على العالم صناعياً وثقافياً وشيدنا لهذه الابل والخيول مراعى على سطح القمر...! لا أعرف لصالح من كان يعمل" لورانس العرب " شركات النفط أم المخابرات البريطانية أم الاثنين معاً..؟ تركونا فى انشغال بجمع جثث قتلانا، فى كل صباح جديد نكفن جسد امرأة ، أو طفل ، أو شيخاً طاعن فى السن.. أصبح القتل عادة لدينا حتى انطفاء فينأ لإحساس بالحزن...

قالت شادية: بالرغم من قيام أعظم الحضارأت في العالم هنا فى أفريقيا وقدمت العلم والرفاهية للبشرية والعالم أجمع .. أصبحنا الآن نستجدي العالم في غذائنا وليس لدينا عمل غير أنتاج الحروب الأهلية التي تؤدي للتخلف والجهل والمرض .. أنهم بدأ يتحدثون في مجال " تخصصي " التاريخ بغموضه وبشاعته أنه لا زال بالنسبة لي مرجع لفهم الآخرين،

تدخلت في الحديث مباشرة بعد أن شعرت بأن الحديث يتخذ عدة زوايا :- قبل عدة أسابيع قرأت كتاب بعنوان " أثينا السوداء " للكاتب " مارتن برنال " ، أثبت أن الحضارة " الفرعونية " وحضارة ما بين النهرين ، تشكلان الأصول التاريخية لثقافتي الإغريق والرومان ، وحدث هذا التغلغل للثقافة المصرية القديمة فى الثقافة الإغريقية حين أحتلها المصريين قبل" العصر الهيليني " وظهر ذلك في مدى تأثر الرومان بالمصريين القدماء ..

ردت إيڤانا بعد ان جعلها النبيذ ساخنة وشهية:- الشيء الوحيد الذي نحترفه هو أن نقيم الحضارأت ثم ندمرها بأيدينا، ثم ندمن الفشل على أن نقف علي أقدامنا .. ووسط النقاش الدائر قررت قرار فردي أن أخرج من مسار النقاش نحو التأمل في إيڤانا ، لها بريق متوهج ينبعث من عينيها، مثل قطة أفريقية شرسة تتوسل الشهوة بعد كل كأس نبيذ جالسة أمامي مثل وردة تتفتح بشذاها المسائي فتعطر المكان، وخصرها المتجلي أنوثة يحملني نحوه لممارسة نرجسية العشق .. امرأة أريد أن أبدا معها خلق أسطورتي وتصبح رمزاً لانتصاراتي.. ومعها أريد أن أجمل نصوص أشعارها، بلغة تحمل داخلها ألفة مفرداتها امرأة سامقة، تسكن فى دواخلها نوارس ومرافئ وسفن مهيأة لرحيل نحو بلاد ليس فيها غير السعادة والحب، أنها أمراه مثل مدن صاخبة نرحل لها عبر الطرق والإنفاق .. كأس آخرى وتصبحين امرأة ممزوجة من لهيب نار عشقي ومن حبر كتابة قصائدك، أريد أن أحبك وأموت وأدفن في سفر تكوينك نصٍ لم يكتب من قبل .. نهضا معتصم وشادية فأخرجاني من لحظة صمتي الجميل، استأذنا بالذهاب حاولت أن اقنع معتصم بتأخر الوقت، لذا عليه النوم هنا هو وشادية لكنه لم يرضخ وأصر علي الذهاب، قال لي معتصم وهو ممسك بشادية من ذراعها اليمنى وهي تترنح وتخرج كلمات بذيئة أقرب للهذيان :- لا تقلق سنكون بخير .. ثم غمز بعينه

اليسرى نحو إيڤانا وأبتسم بتلك الابتسامة المشرقة التي كنت أترجمها في عقلي الداخلي ... عيش حياتك كأنك ترحل غداً... ذهبا وتركاني وحدي مع أيفانا وقلبي يخفق خلف باب بيتي ... لا زالت الأبواب هي ما نحتاج إليه حتى نشعر بالأمان....!

أصبحت الآن إمام امرأة ممتلئة عاطفة وخارجة من صوفية أشعارها، تبحث عن دفء،عن جسد رجل يجدد دماء كتباتها .. تحدثنا وسمعنا أروع الأغاني العاطفية إلى ما بعد منتصف الليل، وكانت إيڤانا تصر على أن أوصلها إلي منزلها بحجة أن زميلتها" سعاد " في السكن ستقلق عليها، وبعد جهد وتعب شديد وبمساعدة النبيذ استطعت أن أقنعها في أن تهاتف صديقتها سعاد، وأن تعتذر لها على قضاء الليلة خارج المنزل، سعاد فتاة في الثامن عشر من ربيع عمرها المزدهر، أرسلها والديها من احدى دول الخليج لتدرس ماجستير في معلوماتية الاتصالات، في احدى الجامعات السودانية، امتازت بجمال صارخ وأنوثة مترعة، وإثناء قضاها فترة تدريبية في احدى شركات الاتصال، تعرفت على احدى المسؤولين في الشركة وأقامت معه علاقة مشبوهة، كبير في السن في عمر والدها وهي في عمر اصغر بناته، أغواها بالمنصب والاهتمام الغير عادي.... أصبحنا وحدنا حملت ما تبقي من النبيذ ووضعته بغرفة النوم اختفت إيڤانا لبضعة دقائق لتنشط جسدها بحمام بارد ، جلسنا على المائدة بعد أن جهزت وجبة عشاء سريعة، لم تكن لدي شهية وكان كل ما يشغلني هو جسدي الذي بدأ في إرسال أشارات اشتعال النشوة ..استبحت جميع قوارير البهار الحارق حتى أخرج من توتر يخلقه لي عطرها، وذلك العطر الممزوج برائحة دفء جسدها الاستوائي، تجلس قربي ثملة مغلفة بغيبوبة سكر خفيف، متريثة بهدوء شهواني للحظة، جسد يتأهب ليكتشف لذته عبر جسدي المحموم برغبته الساخنة، جسد يحاول أن

يرتـاح فـي سكون لغة تحمـل نـشوة لا تترجم خـارج نـصه، امرأة مثل حقيبـة سفر يراودهـا حلـم الرحيـل عبـر صـالات الانتظـار، مدغدغـة فـي وجداني حلمٍ قديم... حلم الرحيل إلي بلاد أبعد مسافة من الخيال إلى غابات مطيرة ساكنة في جوف الظلام وصحاري قاسية تبث فينأ أحساس الوحدة والعطش، وبحار تقبع فـي ظلمـة أعماقهـا عوالم مـن مـردة الجن والأسـرار والطلاسم، اليـوم أصنع من جسدك أعظم سيمفونية عشق، مثل نـشيد أممـي ثـائر أصـنعها مـن عرق نشوة غامضة مثل ومضة ذاكرة، لن ندونـها للمستقبل وحدنا علـى هذا الفراش سنحتفظ بهـا، ونعزفهـا كلمـا التقينـا.. حاولـت ان أكبح جمـاح الرغبـة وأن أتناسـاها بانـشغالي بغسل الأوانـي لكـن ألـم الرغبـة مـؤلم إلـى درجـة لا نستطيع التحكم فيه، اتجهت نحو غرفـة النـوم وجدتها فـي حالـة مـن التكاسل مـسترخية ممـدة علـي الفـراش بـروب حمـامي الرجـالي، كفاكهـة طازجـة شـهية.... اقتربت منهـا أخذت يـدها فـي يـدي اليسرى تيـار كهربـائي خفيـف يـسري علـى جسدي.. أنهـا ارتباكـات الحالـة الأولـى مـن التماسـات الرغبـة، عيناهـا تتوسـلان الـشهوة برقـة وهدوء دخلـت إلـى حضني..... انطلقت قبلـة ساخنة وطويلة وسط ارتجاف شفتيها وموسيقي تأتي مـن مكـان بعيد تشق صمت الليل و المكـان، تـدخل إلـى أعماقنـا بخـدر لذيـذ أغنيـة أسـبانية للمغنـي "سيزأر أيفوأرا " Besame Mucho "قبلنـي كثيراً هذا المساء" أغنيـة عاطفية موسيقى قادمة بهمس جميل مثل صوت نبؤه وسط فوضئ وهمجية العالم..... شكرا" أيفوأرا، قبل هذه اللحظة لم تكن غرفة نومي هذه لا تدفأ إلا بكتـب وحبـر ومغلفـات، وليـل بـارد كالـشتاء، وضـباب سـجائر عـالق كمدينـة تحتـرق فـي الظـلام، اليـوم تـستبيحها امـرأة وشـعر وموسـيقى، امـرأة تجـسد انفعالات جميع المناخـات و تكشف أسرار قلبهـا، وتكتب تـاريخ للعشق علـى سريري وتطرب جسدها على إيقاعات اللذة، تبوح بأسرارٍ من النشوة، امـرأة

فاقدة لوعيها تدخلني إلى عوالم مصحوبة بمتعة الألفة والانسجام.. لماذأ تسقط الدموع في الحب..؟ انتابت إيڤانا حالة من البكاء أصبحت مثل طفلة مشاغبة.. وحدها تلك الدموع غالية أمام حب عميق مغلف بكبرياء النشوة ، تهان بازألتها بمنديل ورقي رخيص..!

دخلت إيڤإنا في حالة من الهدوء والنوم العميق، كانت مضجعة قربي كالقمر وكنت اتأمل القمر، بعد أن قضينا الليل فى فوضئ ولهاث الشهوة، كانت ممسكة يدي بقوة، بدأت أسحبها بهدوء حتى لا تستيقظ من سباتها العميق.. خرجت نحو الصالة حاملاً ما تبقي معي من نبيذ، أشعلت سيجارة، عادةً لا أدخن إلا عندما أشعر بقمة الاستمتاع الذهني والجسدي، شعرت بهدوء بركان جسدي الثائر فى داخلي .. وبدأت أعيد توازني شيئاً فشيئا استيقظت صباحاً وأيڤانا تسكن في صدري بقوة ودفء، شعور غامض يجعلني محلق في سماء صافية، حاولت ان أتخيل ليلتنا السابقة، بعد أن تركنا بالقرب من الفراش علي المنضدة بعض من الأدلة التي من الممكن أن تضعنا مع السلطات في وضع مهين.. زجاجة نبيذ فارغة بارفأن نسائي ، خاتم، وفردت قرض، ضاعت الأخرى بفعل استعجال الشهوة ... شرعت في صنع قهوتي الصباحية في مناخ خريفي بارد رطب جميل .. خرجت إيڤانا من الغرفة بوجهها الجميل وأهدابها الثملة وابتسامة تخرج من أعماقها كفرح طفولي، وشعرها الأشعث المنطلق بهمجية مثل نساء " الهيبز " كانت مصابة بدوار الحب وصداع النبيذ، جلست بقربي على الأريكة بفتور وأضح قالت: صباح الخير ، ما الذي حدث في ليلتنا الصاخبة بالفوضى...؟

رديت: لم يحدث شيئاً فقط نمنا علي سرير محموم بشوق ومشاكسات الرغبة...

ردت وهي تتثآب برقة: ظننته علي الأرجح حلماً أو كابوس هارب نحوي فى زمن غير قانوني

ضحكت ورديت: أنا عاشق مسائك وارتعاشات جسدك في لحظة غيبوبته الأخيرة. ردت: أشعر بألم النشوة في ضلوعي ..

رديت: خلقت المرأة من ضلع الرجل، والضلوع حماية للقلب النابض بالحب...

ردت من خلف ابتسامتها الساطعة التي جملت بها صباحي:- الآن أضفت أنثى لحياتك، يا من أرسل سرب طيور شهوته نحو مدن غوايتي مبشرة بفيض من الحب...

استأذنت إيقانا ثم اتجهت نحو الحمام، لتعطي جسدها دشٍ بارد، ليتخلص من جموده الموقت، قليلون هم الرجال الذين، يقذف بهم الحظ إلى النوم مع نساء يحترفن العشق .. وبعد عدة دقائق، عادت وجلست قربي وهي ملتحفة بروب الحمام والماء ينساب من شعرها إلي جبينها ، كأنها وردة برية نضرة بنداها الصباحي .. تناولت فنجان قهوتها وهي ترمقني بنظرة تمتلئ سعادة قالت: كم كانت ليلة جميلة ..

رديت: أريد ان تصبح كل لياليك جميلة قربي ..

كانت ترتب الصباح بهدوء مثل نسمة تعبر البحر، وترتشف قهوتها بأنفاس شبقية وترمقني بنظرات دافئة دفء غابات استوائية .. كثيراً ما حاولت أن أستوعب فخ الحياة، صباح خريفي بارد مختلف عن كل الصباحات التى مرت على حياتي، أكواب قهوة لا عدد لها، أغنيات مميزة، وقربي امرأة سكنت حجرات القلب، لا شيء يكسر ألان حالة هذه الرومانسية وألمي الجميل الم الحب...

امرأة جردتني من ذاكرتي بجمالها الصارخ واهدتني ديوان شعر لغته تغوي، أنثى تشعر بالوحدة والفوران الجسدي، أن أجمل النساء تلك المرأة التي تبقي صورتها، عميقة فى الذاكرة مثل شيئاً خاص قمت باكتشافه، أو أهدته لك الحياة حتى تحتفظ به مدى العمر ..امرأة غامضة مثل قدر يتربص بي عند ناصية الحياة، قاتلة بعشقك مثل موعد خطر، شهية بجنونك الذي ينذر بكارثة تزلزل كيان عقلي إلى حد التلاشي، من أجلك ملاكي يصبح الحب فى دوأخلي نوراً ونارا، زهرة تمارس عشقاً مع نحلة .... يا رحيق يمتد من شرايين قلبي إلى وريد وردة .... قمت بعدة محاولات حتى أقنعها بالبقاء معي لتزيل غبار الوحشة عن منزلي وتنسيني هزائم وحدة جسدي، لكنها أصرت على الذهاب لقضاء بعض الضروريات، لم تتركني ألح عليها كثيراً وباغتتني بقبلة وداع شفيفة سرت في شراييني بخدر جميل .. صعدنا إلى السيارة ونحن ينتابنا القلق والحذر من أن يرانا أحد من عيون رجال الشرطة فوجودك مع فتاة حتى لو كانت أختك تحاكم بأحكام الزنا مئة جلدة لكل منهم، بدون وجود شهود مدنيين، لا أعرف من الذي أجتهد في تعديل مادة شرع الهي..! كيف يمارس الإنسان حريته والسلطات لا تعترف بما يسمى بحق الإنسان في الحياة ؟ وعطرها الباريسي يفوح و يزيل مساحة توتري

قالت إيڤانا وهي تحاول الخروج من نفس الارتباك الذي أصابني: يجب أن أذهب إلى المنزل لأستبدل فستاني هذا بأخر يليق بمشاويري النهارية ..

رديت: أذن متى أراكِ لتبددين حزن المساءت الذي يلازمني....؟

ردت بابتسامتها البيضاء التي كست ملامحها: فقط أتصل سوف أكون على موعد معك ..

لدي رغبة قوية فى أن تبقي معي وأن أعيش في عزلة أنوثتها بعيداً عن صخب وضوضاء الحياة، توقفت أمام منزلها قالت وهي تنظر إلي بقوة وبنبرة صوت مثل نواح نأي أيقظ صمت المدن: لن تتركني وحيدة سوف نكون على اتصال أليس كذلك...؟ هززت رأسي مجاوباً

دست يدها بين أصابعي ومالت نحوي بإغراء اسرعت له نبضات قلبي وردت: أحبك أثارت كل حواسي بإغرائها الذي أصبح مفتاحي نحو جسدها .. امرأة درست مزاياها ومن جميع الزوايا فقرة فقرة، بساطتها تلقائيتها، لغتها، تأوهات جسدها، دفئه وفرحه وحزنه، أصبحت منجذب نحوها وممسوس بحركات شفتيها، مثل فراشة هشة تطير نحو النار بشهوانية لتكتشف غموضها الساطع، ذلك الغموض المضيء الذي يجعلها تضحي بحياتها وتحترق، هكذا قادني الشبق إلى مرتفعاتها، ذهبت وتركتني أقاوم حزن الفراق ماذا افعل ؟ غير انتظارك قادمة كالحلم بوجهك الطفولي الجميل، وفي نفس الحي الذي يسكن فيه خليل، والذي أنشأه الجيش البريطاني في فترة استعماره للبلاد، أنه أقرب لمستوطنة من حي عادي، في أي مدينة من مدن العالم.. قسم على نظام " بلوكات " جزء منها خاص بالجنود السودانيين الذين كانوا يخدمون في الجيش البريطاني في زمن الاستعمار، أما الجزء الأخر وهم الأغلبية كان لعمال السكك الحديدية، وجميعهم كانوا يلتحقون بالعمل مع حكومة الاستعمار لعدة أسباب منها المرتبات المجزية ومؤنه الدولة من طعام وكساء والعلاج المجاني، كان الحي في نشاطه اليومي و بعالمه الذي تفوح منه رائحة الفقر. الليل هنا وأقع الجميع وحده هذا الحي يتحكم فيه الظلام ويمضي وحيداً نحو الشفق بضبابه الرمادي الرطب الذي يملا الفضاءت الفارغة .. حي غريب يرغب في الموت وحده

بدون ذاكرة تفصله عن تاريخه الحقيقي، رائحة القهوة ممزوجة برائحة البخور " الأثيوبي " ورائحة خمور تفوح من بين الأزقة .. أصوات لهجات أفريقية تصدر من أجهزة بث إذاعي ، تراكم حضاري هائل ، سحنات وأشكال وجنسيات مختلفة كل منهم حضر إلى هذا المكان وهو يحمل مشاكل بلده الاقتصادية والسياسية ، أنه اللجوء الغير منظم ومدروس .. مثل مقولة أحدي الفلاسفة " أذا لم تكن الحضارة فى القلب ، فأنها لن تكون في أي مكان أخر " سماسرة يديرون أعمالهم من منازل للدعارة ، وساسة يلبسون عباءة الصلاح والتقوى، ويكذبون علي الفقراء ويوصونهم بالصبر ويسرقون قوتهم ..! وبعضهم يهرول نحو المساجد والكنائس طلب للرحمة في الدنيا قبل الآخرة ومتصوفة يقرعون طبولهم ويذوبون في عشقهم الرباني، همهماتهم تغير طعم الحياة مناخ صوفي عبق مليء بالروحانيات، أنهم يتجهون نحو الخالق بدون سماسرة وسياسيين، وبدون صكوك غفران لا يوجد هنا شيء ينبض حياة، حتى الأطفال يشبهون موتا خارجين من قبورهم.. ليس لديهم أدنى حقوق من تعليم وصحة مثلهم مثل جميع أطفال هذه القارة .. هنا الجهل يورث من جيل إلي جيل وطن غير قادر إلا على التهميش والشعارات الفارغة الجوفاء التي تجعل الفقير يزداد فقراً والثري يزداد ثرأء لا شيء غير أنتاج الحروب الأهلية والسلطات تصرح بأنها تحكم بعدالة السماء..!! قتلة وتجار باسم الدين، مهووسون بأفكار متطرفة ليس لها علاقة بالدين فاشلون في إيمانهم، يعتلون المنابر، يقتلعون ما تبقي في قلوبنا من رحمة وإنسانية وهبنا لها الخالق.. كيف تطفئون نور التسامح..؟ ومتى كان الدين سلعة تخضع لمواصفات السوق حسب العرض والطلب، لا نريد من يفخخ أجساد أطفالنا .

نريد من يعلمنا كيف نصنع لهم من غصن زيتون وجبة ولعبة لنفجر في دواخلهم لحظة فرح ...

جلس معتصم وشادية في جلسة خاصة ليشربا القهوة " الأثيوبية " بطقوسها المميزة وسط غناء " الأمهرأ " الذي يمتاز بموسيقاه ذات اللحن الحزين، لحن يعبر عن دواخلهم بحروبهم الطويلة واغترابهم وحنينهم إلى الوطن.... كانت تصنعها لهم صديقتهم الهام والدتها " أثيوبية " ووالدها " اريتري " لم تعرف عنه شيئا ترك والدتها حامل بها وأختفي، توفيت والدتها اثر مرض عضال وأخذتها حجة " بخيته " وقامت بتربيتها والعناية بها، لا تتذكر الهام أو تعرف شيئاً عن والديها، كل ما تدركه ان حجة بخيتة هي والدتها الحقيقية، وبخيته هذه، امرأة عجوز تجاوزت السبعين من العمر .. من أجل جمع المال، تفعل المستحيل وهي تستغل منزلها لإيواء الفتيات الهاربات من الأقاليم المختلفة بسبب الأوضاع الاقتصادية السيئة والمنبهرات بعالم الموضة والأضواء والسيارات الفخمة الفارهة .. كانت تستغلهم في إدارة شئون منزلها من نظافة وطباخة إلى الاهتمام بزائري الليل، من أبناء الطبقات الثرية وعندما يأتي هؤلاء إلى منزل " بخيتة " يحملون لها سندوتشات "الهمبرغر" والفطائر و" البيرة "الباردة لا تدخن السجائر إلا من نوع "مارلبورو " ، لقد كانت تعتقد بان صورة " راعى البقر " التي على العلبة هي صورة الرئيس الأمريكي السابق " رونالد ريغان " وهي من الجيل الذي عاصر أفلامه ، ولم يفهم سياسته ، كانت شرهة أمام السجائر والطعام الأمريكي وكانت تردد دائماً إن طعامهم لذيذ الطعم وسهل الهضم ..! كانت الهام تجهز القهوة وهي تتجاذب أطراف الحديث مع معتصم و "شادية" إنها تحبهم حب شديد ولهما منزلة خاصة لديها وكانت بخيته متكئة على السرير بملامحها الطفوليه رغم امتلاء وجهها بالتجاعيد بعد أن

مرت عليها السنين بحلاوتها ومرارتها، رغم عن ذلك لا زال لديها بعض من ملامح جمال قديم كانت تمارس هوايتها المفضلة وهي ممارسة التنجيم بواسطة نشر حبات " الودع " على الأرض، كانت تتمعن تلك الصدفات البحرية، وهي تمرر يدها حولها وتخط على الأرض خطوط غير منتظمة، محاولةٍ ان تستشرف مستقبل وماضى وحاضر الجالسين حولها، ونظرت إلى شادية بتأمل ثم أحنت رأسها نحو صدفاتها البحرية، وأزاحت احدى الصدفات الكبيرة الحجم عن بقية الصدفات بكف يدها الجافة، التى تقفز منها الأوردة والشرايين لنحافتها، وأمات لشادية برأسها قائلا : ده منو يا بتى يا شادية الوجيه العينو عليكِ ده ؟ ردت شادية بضحكة ساخرة وهي تنظر لمعتصم، : ده يكون معتصم يا حجة بخيته هو في غيرو ! ضحكت بخيتة باستهزاء ثم رمقت صدفتها الكبيرة وردت : يا بتى أنتِ مطوفشة ده عندو عربية سمحة شديد ووجيه معتصم ده صحفي ساكت ! انفجرت الهام بالضحك، تبعها الجميع.. أخذت بخيتة تثير الفوضى العارمة بضحكاتها وصوتها العالي، ومعتصم وشادية يجدا أنفسهما وسط هذا التداعي التراجيدي أنهما يحبان هذا المكان وهؤلاء الأشخاص، لا مفر من الحياة عندما يحب القدر مجموعة من الأشخاص بآمالهم وفواجعهم وذكرياتهم، أنه القدر عندما يجمعنا ليجعل منا ملهاة للحزن والسعادة أو صرح ذكرى للماضي.. وجهت بخيتة سؤال إلي شادية وسط صمت الجميع وذهول الهام التي كانت تدرك من نظرات بخيته أنها تريد أن تثرثر لتلطف الأجواء وأن لديها خبر ساخن لم يبرد بعد: ألم تسمعا بما حدث " لأم الخير " ؟

ردت شادية باستغراب: لم نسمع شيئاً...!

أم الخير امرأة تصنع الخمور البلدية .. ولها العديد من المنازل التي تمولها وتمدها بالخمور .. وهي تسكن علي بعد عدة أمتار من منزل بخيته

قالت وهي تنهض من رقدتها وتمسح بيدها حبات العرق المتحرجة علي جبينها من جراء ارتفاع حرارة الجو :- إن أم الخير زعلانه من بنتها أحلام زعل شديد ..

ردت الهام بعدما مبالاة واهتمام: وما الجديد في الأمر !

ردت بخيته: بنتها أحلام عملت علاقة مع عسكري ، بقولوا أنو برتبة كبيرة وأنتم عارفين أنو أم الخير ما دأيرة أي علاقة مع عساكر عشان خايفة علي تجارتها من الخمور ، وتدخلت الهام في الحوار مباشرة وهي تعطي معتصم فنجان قهوته :- ومن المعروف أن أم الخير في أيام شبابها ومجدها الذي اشتهرت فيه بجمال لم يكن له مثيل ، لقد أقامت علاقات مع ضباط كثيرون.

اعتدلت بخيته في جلستها وتدخلت قائلة: وبتها أحلام ذاتها أبوها كان برتبة كبيرة وزول معروف في الحكومة ورفض يعترف بيها لأنو خايف علي مركزو في الوقت داك..

ردت شادية: إذن حسابات عسكرية بحته ..

وتدخلت الهام بضحكتها التي تبعث الأريحية في النفس : الجميع يعرف أن أم الخير ومنذ مراهقتها ، وهي تثيرها وتجذبها النجوم والنياشين العسكرية ..

تدخلت شادية ردت: إنهم النساء ذوات العقول الفارغة يحبن الاضطهاد إنها عادة تقدسها نساء العالم الثالث..

قال معتصم بعد أن وجد نفسه منغمساً ومتابعاً للحوار : من الطبيعي أن تصبح أحلام مزاجية مثل والدتها رغم أن هناك أشخاص يولدون بشخصيات متفردة ..

ردت بخيته وهي تحاول مد زمن النقاش لأطول فترة زمنية ممكنة :- العامل قلق لأم الخير أنو ما دأيره بتها تتعب زى ما تعبت وتجيب ليها بنات وأولاد يقوم ما يعترف بيهم العسكري دأ وخوفها الكبير علي تجارتها وأنتو يا جماعة عارفين أنو الخمور بقت تجارة كويسه ومربحة ...

وردت الهام بعد ان أثارها الحديث : هل من المعقول أن يكون هذا الشرطي لا يعلم بان أم الخير تبيع الخمور البلدية !

ردت، شادية بسخرية لاذعة: إن رجال الشرطة في جميع أنحاء العالم مصابون بنوع من التناقض النفسي ويميلون دائماً إلي بيئة عملهم التي تحيط بهم..

تدخلت بخيتة والغضب بدأ في الظهور علي ملامحها: دي بت مطوفشة ساكت .. دي فرصتها يعني شنو ضابط ولا وزير في النهاية.. كلهم بمشوا لمكاتبهم وما عارفين يعملوا شنو ! وأحسن حاجة تعرسو يا ساند أمها يا دخلهم السجن يوم الزفاف...

رد معتصم ضاحكاً بهستريا: سيكون وقتها لشراب أم الخير طعم آخر فيه نكهة امرأة خارجة عن القانون أحبت رجل يمتلك القانون...!

ضحك الجميع ، انتهت جلسة شرب القهوة بانتهاء الثرثرة حول مصير أحلام الذي لا يستطيع أن يقرره أحد، أو يتنبأ بهي أحد، هنا في هذا المكان يبدأ كل يوم حديث جديد يشرق مع كل فجر ويموت مع الغروب، مجتمع يستمتع بتداول فضائحه وإشاعاته.. ترك معتصم شادية مع الهام، لتغفو قليلا وخرج ليتابع بعض أعماله التي لا يعلم بها أحد حتى شادية نفسها لا تدري ماذا يفعل ووعدهم بالحضور في المساء كان خليل يومه مزدحماً بالمحاضرات ، وكان في حالة من الإرهاق وصل إلي منزله وأخذ حمام بارد

ثم أسترخي قليلا وبعدها قام بفتح هاتفه، المغلق لفترة طويلة من الزمن، وكانت إيڤانا أول من اتصلت بهي: مساء الخير لماذأ هاتفك مغلق على مدار هذا اليوم...؟

رد خليل: مساء الخير لقد كان اليوم يوم عمل شاق مزدحم بالمحاضرات ومراجعة بعض الأوراق أشتاق إليكِ لترتبين عمري..

ردت :فقط تشتاق إلي آه آه لو تدري كم تجمل دوأخلي أحبك ..

رد: لم تفارقي ذاكرتي لحظة وأنت تصنعين لي من عشقك سياجا برزخياً، امرأة حتى في هاتفي تنشر دفء عطرها الفواح، أنها تجعلني أرهن لها ما تبقي من عمري كيف يكون قدري معها ؟! امرأة تقتلني بإغواء نصوص أشعارها وهي تغتسل بقطرات ندى المساءآت المتعبة ورائحة غرفة نومها، أريد أن اطفي شعلة حبي في صدرها وأن أتأمل جمالها الاستوائي الساحر المترع بخضرة الغابات، علاقة أشبه بالقصص الأسطورية امرأة لم تكن تكتب أحلامها، كانت تكتب حياتها.. نمارس الحب في زمن الحرب و القتل بدون أسباب ، في زمن أصبحت فيه البندقية أهم من دفء قبلة عشقيه ، كأننا نجسد مقولة الشاعر نزأر قباني من "صوت القبلات عرفت حجم صوتي / ومن اصطدام السكاكين بلحمي عرفت أبعاد جسدي... تحادثنا كثيراً حتى مضى وقت من الزمن ونحن في غفلة عنه، وعدتني بالحضور إلى منزلي في الغد ثم ودعتني، أذن على أن أنظف وأعيد ترتيب المنزل حتى يكون فيه شي من أناقة اللقاء، أشعر بإحساس غريب، وأنا أجدد موعدي مع امرأة يحفل لها القلب، تطربه بلحنها الجميل تعلمه نرجسية وإدمان الجسد، وتقص على قصصاً عن غزواتها وأساطيرها الخرافية.. هبط الظلام علي هذا الحي الذي تبدأ فيه الحياة غالباً في الليل، وبدأت الاستعدادات لتمرد الحياة

فى هذا الحي عن النظم الموضوعة . أتجه معتصم نحو منزل بخيته، ووجد شادية والهام وجار بخيتة "عم الطيب " العربجي كانت تنبعث من مذياعه الذي يحمله دائماً معه، أغنية شجيه ذات لحن جميل فيها مسحة من الحزن، تحكي عن الهجر والفراق أغنية قديمة كلماتها صادقة تهز الوجدان فالغناء الذي نشعر بصدق كلماته وجمال لحنه دائماً يدخلنا لمرحلة الدهشة ويلغي مساحة الأسئلة ويدخلنا إلى عوالم الطرب

قال معتصم وهو يفاجهم بالدخول عليهم : مساء الخير..

التفت، شادية والهام وردتا السلام أما عم الطيب قفز هب واقفاً علي طوله من السعادة عند رؤية معتصم وهو: يردد وينك أنت يا راجل أسبوع كامل يمر والواحد ما يشوفك؟

رد معتصم بعد أن صافحه بالأحضان: شوية انشغال بالحياة ومشاكلها ثم أضاف كيف صحتك وصحة المدام ؟

رد عم الطيب: أنا الحمد لله صحتي عال العال ، لكن المدام كبرت في السن وكثرت الأمراض عليها يوم رطوبة ويوم ضغط ، مشاكل كثيرة ما بتتنتهي ، وأنا يا دوب هسع بدأ دم الشباب يجري في جسمي ..

ضحكت الهام وشادية ، التفت عم الطيب نحو شادية وهو يتمعن من اعلى زراير البلوزة إلى نهديها النافرين، الذين يكادا ان يقفزا من خارج صدرها، قائلاً: دحين يا شادية ما تشوفي لي عروس في عمرك كده، أصلي تعبت من الشراب برأي زى الشيطان ..

ضحك معتصم حتى أدمعت عيناه ورد له: يا راجل بعد العشرة الطويلة دي تتزوج على المدام ؟

ردت شادية: يا عم الطيب أنت ما بتحب المدام ؟

رد: والله بحبها، وقضينا مع بعض أجمل الأيام لكن شوفي الشوارع دي مليانة بنات حلوات حلا ما عادية ثم نظر إلى معتصم موجها له الحديث: أنت يا أستاذ البنات ديل جابتن معاهم الحكومة دي ولا شنو.... !؟

رد معتصم وهو يكاد ينفجر من الضحك الحكومة ما عندها دخل، الموضوع كلوا أنو زمنكم كان البنات أماكنهم فى المنازل .. لكن اليوم أصبحوا في كل مكان وماخدين راحتهم تماماً ..

رد عم الطيب فى حسرة واضحة: والله يا أستاذ أذا أنا من الجيل دا كان أتزوجت من كل قبيلة مرآة ..

قاطعت الهام حديث عم الطيب ضاحكة، بعد أن كانت غائبة لبضعة دقائق لقضاء حاجياتها: لكن يا عم الطيب الزواج دأير إمكانيات.

نظر لها ثم افرغ كأسه بامتعاض بشع : زمان كان عندنا إمكانيات لكن البنات غير متوفرات ذي الزمن ده ، أنا زوجتي الهسع دي ما شوفتها إلا يوم الدخلة، دحين الحكومة بتعرس للشباب والشباب خايف .. شباب أخر زمن !! عم الطيب رجل النادر أن تصادف إنسان مثله يحب الفكاهة رغم مرح ، كأنه في العشرين من العمر من تجاوزه السبعين من العمر يحب الاستماع إلى أغاني "الحقيبة" وهي أغاني فترة الأربعينات ذلك العصر الذهبي للغناء السوداني وعندما تأخذه نشوة السكر يجيد * أداها كأنه "سرور" أو " كرومه " كان يعطينا أحساس بقيمة أشيائنا الجميلة المنسية وسط هذا الزخم الهلامي من عمر المعاناة في الحياة، كان يؤمن إيماناً تام بأن أغاني "الحقيبة" تزخر بالكلمات ذات المعاني الجميلة التي كل ما مر عليها الزمن تصبح أكثر رونقًا وجمالٍ وخصوصية، كان عم الطيب يجعل معتصم في حالة

من الذهول الدائم، فهو يفلسف الحياة بإحساسه البريء ويراها بنظرة واضحة غير معقدة.. ربما لأنه يعيش بضمير أنساني وسط عالم مادي ولأن طموحه البسيط لا يتعدى " عربة الكارو " التي يحمل بها البضائع من تجار ألأجمالي إلى تجار القطاعي ولا يملك شي يهتم بهي طول الوقت غير مذياعه الذي يحمله معه ولا يفارقه ويتابع كل البرامج، وباهتمام أكثر برنامج " حقيبة الفن " الذي يهتم ببث الأغاني القديمة، معتصم والهام وشاديه أستاذنا من عم الطيب ثم توجها نحو غرفة الهام التي يبدأ عملها مع هبوط الظلام، وكل مواعيدها وخططها تتم عبر هاتفها الجوال.. تحب الحياة المرفهة والسيارات الفارهة ، أنها تعوض فقرها الذي لازمها منذ الطفولة وعاطفة والد هرب من مسئوليته وتركها في أحشاء والدتها ولم تعرف يوماً عنه شيئاً أنها ماهرة فى اصطياد الأثرياء وقضاء أجمل الأوقات فى غرف نومهم، ويساعدها علي ذلك بما تتمتع بهي من جمال وإثارة .. لبست أجمل ما لديها من ثياب وحلي ثم ودعتنا، وقالت إنها لن تأتي إلا صباح الغد وطلبت منا انا وشادية ان نبقي في غرفتها حتى الغد، كانت تعلم جيداً أننا لن نرفض هذا الطلب فأنا وشادية نحتاج إلى مكان هادئ مثل غرفتها حتى نشعر بإسقاطات الحب..

تركتنا وحيدين وعطرها ينتشر في الغرفة بدفئه الجميل ويصيبني بالدوار . رن هاتفي المتصل خليل يريد أن يطمئن علينا بعد أن اختفينا عنه لفترة من الزمن، وكعادته أصر أن نذهب إليه، بعد أن حاول أن يقنعنا بأن منزله أكثر أماناً، أعتزرت عن الدعوة وقلت: أنت تعرف جيداً بأنني أحب أن أعيش على حافة الخطر .. فضحك وتمنى لي ليلة سعيدة .. شربنا بعض من كؤوس خمره " أم الخير " صعدت بنا إلى عالم مغلف بالشهوة ، جسدينا

يلتحمان بحميمية ، أنين خافت آهات الشهوة ترتفع بنا إلى السموات نحترق في سرير من الرغبة، الحنان، الأم الحب، الجنون وصوت ساعة حائط تحسب الثواني بتوتر وقلق اعترافًا بسعادة وعاطفة وخطيئة لن تدومان كثيراً .. علاقة غير مرحب بها في مجتمع تمتلئ جميع كتب تاريخه وآدابه بقصص سبيى الجميلات من النساء ليصبحن جواري ومحظيات في قصر السلطان فقط للمتعة ويسلبوا من دواخلهم الحب و كل شيء جميل، لم يكن ذلك باختيارهم كانت ثقافة مجتمع، نحن فقط من كسر روتين القوانين والعادات والتقاليد، بالحب وحده حررنا أجسادنا في مجتمع يشعر بالرعب من مغريات الحرية ..هل مهمة البشر فقط للتزاوج والحفاظ على نقاء السلالة البشرية ؟ لماذأ إذن علمونا أن تحرر الجسد بداية موامرة لنزوة عابرة ؟ وتحرر الفكر موامرة على القانون والدولة نستحق عليها الذبح نحراً من الوريد إلى الوريد ؟ وتحرر الروح عن الجسد قدراً الهي!!!

أخذ خليل في الاطلاع على ديوان إيڤآنا الشعري في هدوء وتبجيل وسط خلفيه من الصمت، لم تضع امرأة من قبل كل هذه الشاعرية فى ديوان شعر .. كلمات تجمع قلبي المحطم بعذابات الحب، يا امرأة أريد أن أرسل قبلة تسافر نحوك وتسترخي بين شفتاكِ، إلى متى تزيدين مساحة احتراق حبك في دمي ؟ بالحلم أم بالتأمل أو الموت في ألفة جسدك، المكتوب في دوأخلي نصٍ " مقدس " تستدرجني نظراتك، وتتركني أغني لمدن معلقة في السماء، وأقرأ قصائدك تلك المغسولة بماء البحر، الهاربة نحو أفق القوافي ربما يوماً ما يا امرأة خارجة من بين غاباتك الاستوائية، أدمن ركوب صهوة نهرك وأغامر نحو شلالاتك، وأكفن جثث كلماتك المبعثرة علي أرصفة الانتظار أريد أن أقذف ماءك برعدي، فينفتح نهرك وأسقط في عوالم شعورك، وأندفع نحو غموضك إلى عمقك اشتهاء لعبق ياسمينك .. تدفقي على جسدي واغمريني

بفيضك حتى أعلن نهاية موسم جفافي ... لغة غريبة تدخلني نحو عالم خفي تؤسسه امرأة بطغيانها الشعري، مثل ما حدث للخليفة " المنصور " أمتدحه الشاعر " إبراهيم بن هرمة " تحول الخليفة من رجل يستشير في كل أمره إلى رجل مستبد وبطغيان مطلق..غيره بيت من الشعر !! أنها سلطة النص، عندما تزلزل كوأمن الإحساس فى دواخلنا وتستبيحنا تعطينا جرعات من السعادة الحزن، الحب .. والأغرب والمثير أن سطوة النص على السلطة فى الجانب الآخر من المعادلة أدخلت الشاعر " المغربي " عبد اللطيف اللعبي عشرين عاماً في سجون بلاده، وعندما خرج إلى الحرية قال: " خرجت من عمق حبس السلطة السياسية إلى عمق حبس سلطة الوجود، زنزانتي أكثر رأفة بي " امرأة تستمد أشعارها من قهر الحب ونزيفه، قصائد رائعة تمتلئي أحاسيس وعواطف جديدة، تنقلها عبر كلمة مرهفة معتقلة خلف جدران أنانية روح الإنسانية تهيج الحواس وتقدس الحياة.. أستيقظ خليل فجراً قام بجمع أوراقه المتناثرة على فراشه التي كان يدون عليها ملاحظاته النقدية حول أشعار إيقانا ... أخذ حمامه وأرتشف قهوته الصباحية، على بشاعة العالم في قناة الجزيرة الإخبارية جثث مبعثرة فى الشوارع، قصف صاروخي لمنازل مواطنين أبرياء ليس لهم دور في هذه الحرب ولا زالت تلك البقعة من الأرض تثير دهشة العالم "العراق"، وفلسطين إنهم يموتون بأكثر الطرق إيلاماً وهمجية يوماً بعد يوم وقوات التحالف وأمريكا تقتل الأطفال والنساء والمزارعين الفقراء الأفغان بغارات جوية عشوائية ..لقد لقد مرت على ذاكرتي تلك الحادثة البشعة، التي وقعت للشاعرة الأفغانية "ناديا أنجومن" قتلت من قبل زوجها بعنف ووحشية بشعة فقط كونها خلقت شاعرة ...!! ياتى الموت على جميع البشر بكل الأسباب، وأخيراً السبب وأحد غباء ولا مبالاة الإنسان، فريق ينفذ جرائمه بمبدأ مكافحة الإرهاب وفرض

الديمقراطية !!! وفريق أخر ينفذ جرائمه بمبدأ التحريم فى الدين..؟ من أي الشرائع الربانية أتى فقه ان من يقتل إنسان بدون مبرر أو لغاية تافهة، يذهب إلى الجنة ؟! من نصدق، أنها حروب بلا أسباب هل من نبئ أخر يعطينا بعضاً من الإنسانية ؟ لازال العرب ينامون نوم، أهل الكهف نوماً عميق، والغرب ينتج لهم المسرحيات الهزلية ، وهم يجلسون كالمعتاد خلف الكواليس فيعطيهم الغرب دور هامشي صغير مكرر، فقط الصراخ ، صراخ الأطفال وعويل النساء، ودموع الرجال وسط تراجيدية الحزن والخوف والبطش ... مثلما عرفهم التاريخ هؤلاء الغربيين يؤلفون المسرحيات العظيمة لشعوب لا تتسم بالشجاعة والجرأة لأداء الادوار المؤثرة الكبيرة، كأنهم يقولون لنا، هذه هي الحياة كما نريدها، رضيتم أم لم ترضوا أنه القدر الإلهي الذي يلازمكم بسبب نفاقكم الذي تمارسوه على الخالق والبشرية أنها إلام المغفرة علي خطاياكم التي بدأت تطفو على السطح دون أن تنتبهوا لها ..هل تعرفون من نحن يا أرث الصحراء يا سلالة الإبل يا رائحة النفط ؟ نحن كابوس كل الحكايات العربية نجسد على الواقع دور بطلكم المغوار "شهريار" في كل يوم نستبيح وطن ونسميه "شهرزاد" أن تهبونا كل يوم وطن يعني ذلك أن نجنبكم مقاصلنا ، أنتم مثلما عرفكم التاريخ لم تكونوا غير حاشية ووسيلة فقط لإزاحة الضجر والملل عن كأهل السلطان .. حتى لأتسقط رؤوسكم عندما يغضب السلطان ....

رددها فى دواخله ثم أغلق التلفاز، وتوجه نحو الجامعة .. لم يعد يشغل تفكيري شيء غيرها إيقانا أنا مدين لها برجوعي إلي شيء كدت أنساه أنه الحب.. دخلت مكتبي وسط نظرات الطالبات، نظرات بريئة تستجدي الحب من كل رجل يمر بقربهن، أنهن لا يصلحن للحب ليس لديهن أدنى خبرة في الحب، أصبح لا يهتم بالغبار الذي يملأ مكتبه، لقد يئس من كتابة المذكرات

والحديث فى الاجتماعات، والحقيقة الوحيدة التي أكتشفها إن مديره لا يريد ان يهبط من برجه العاجي لمثل هذه الأمور التافهة ..! اخذ يرتب أوراق محاضراته وبعد عدة دقائق توجه نحو قاعة المحاضرات يحبه الجميع لموهبته ومهاراته المتجددة فى الأسلوب وتركيزه دائماً علي المعلومات المتحكمة فى الأحداث، تاريخياً وأسطورياً، امتلكت إيقانا عقله في زمن المحاضرة بصورة غير عادية، حتى جسده بدأ يشعر بارتعاش الشوق، تلك الأرتعاشات التي لا يشعر بها الإنسان إلا وهو في أعلى حالات النشوة .. وأيقانا تحاول أن تتصل بخليل هاتفه مغلق ، كانت تردد في دواخلها يا ربي أنها احتراق الشوق بأوجاعه السامية .. تخضعني لهذا الرجل الذي يتسع بعمقه فى دوأخلي، لا أريد أن أفقده أريد منه جسداً أخر يحمل كل سماته وفيه رائحته، حتى أصبح مصلوبة علي خشبة عذابات حبه مسيحاً أخر، أشتاق االيه والي قبلته البطيئة الثملة، التي تشعل نيران جسدي بغموضها وألفة ألمها اللذيذ وبهذيان شهوتها وخصوصيتها ..ـ يا من بحبك جعلت القصيدة تتسلل خلسة من جسد الكلمات وتسكن جوانحي بهدوء، أريد أن أتجرع كأسٍ من السم وأموت تحت أقدامك بقداسة، مثلما كان يفعلن عاشقات روما القديمة همسك يلازمني، وصوتك المعتق رجولة يجعلني كراهبة "سومرية" تتعبد فى ظلام معبدها، وتعشق خلوتها فى وجودك، كيف تتخلي امرأة عن رجل صنعته من دواخلها برجفة النشوة الأولى وفوضى الكلمات ؟ منك أنا أصنع فرحي، هكذا بدأت ترتب الكلمات.. فاجأها نزيف الكتابة بآلامه القاسية وقذف بها نحو عمق سحيق بارد رطب ومظلم تناولت القلم بتكاسل جميل وبدأت تكتب:

هكذا يـأتي الحب فـي ليلـة مطيـرة أنـه جسراً بينـي وبين ضـفة النهر الأخرى

كنا نسير سوياً نختبئ في معاطفنا تحت قبعات أحلامنا

نردد أغنية قديمة وننتعل أحذية جنود قدماء

نضحك ونقفز خلف الفراشات عند النصب التذكاري

والسابلة والبائعون يهرولون من ريح ثلجية

وشحاذٍ صغير يعزف على الساكسفون

موسيقي " البلوز " لمطلع العام الجديد

والقمر الشاحب يئن من البرد

وعجوزٍ يقرأ قصائد " ارغون ايلور "

موت زهرة عويل نساء يشرق مع خيوط الفجر

يودعون أبنائهم إلى ظلام الحرب

بزهرتان سوسنة بلون الدم

ونرجسه بيضاء بلون وطن

ويتوسدون أحلامهم ليضيء السلام طريقهم

رن هاتفهـا بـصوت تـصاعدي مـزعج.. أخرجهـا مـن سـمو عالمهـا الخاص بمناخه الشهي ودهاليزه السرية .. المتصل خليل، يصبح حادث وقدرٍ محتوم لتوقفها عن كتابـة نـص شعري... أتـى صوتـه الرجولي الرخيم عبر الهاتف وأصابني برعشة ورهبة جميلة : كيف حالكِ اليوم ؟ آه.. لا تعلمي كم أشتاق لرؤيتكِ

رديت: شوقي إليك يكاد أن ينزع قلبي من بين أضلعي

فاجئني ضاحكاً ثم رد: ما رأيكِ بدعوة غداء اليوم ....

لم يكن يعطيني فرصة الرفض أو القبول فقد كان يهجم على بأسلحة الرجل البدائية الأقرب إلى قلب كل امرأة، أنها مفاجأة اللقاء، رديت وأنا في حالة من التوهان : لقد انتزعتني من لحظة كتابة قصيدة ..

رد: أنا نصكِ الحقيقي، الذى يشتاق إليكِ إلى درجة البوح بأجمل قصيدة

رديت: لم أعد قادرة على مقاومتك...

تواعدنا أن نلتقي بعد ساعة في مطعم " مدام فوود " .. أغلقت إيڤانا هاتفها وهي تشعر براحة نفسية غير عادية ، وفقدت شهية الكتابة بعد أن فتحت شهيتها نحو اللقاء .. دخلت المطعم في موعدي وجدته برومانسيته والوأنه التي تطغي على المفارش والإضاءة .. إيڤانا جالسة في ركن قصيي وسط موائد عامرة بهمسات الحب واحتفاء المكان بعشاقه القادمين لحميمية اللقاء، أنها فى انتظاري ومعها العشق وإسقاطاته ووجعه الجميل ، أنها أرث شاعرة ، سكنت في شغاف قلبي أنها تكتب عن سيرتي وعن انهياري وزوالي لتتركني مثل، " أرم ذات العماد " لتستبيح الشمس جمالها المدمر .. لم تكن أمنيتي في الحياة، وبعد هذا العمر أن تأتي امرأة لتفتح أبواب مدينتي الصدئة، وتعطيني عشق وبعضٍ من أحلامي ، وتملأني عذابات بقدر العمر وتصنع لي بأنينها الخافت جحيم لا متناهي، وتكسو جسدي بالآلام المزمنة .. أنتِ المرأة الوحيدة التي أهدتني قبلة وقنبلة وسرير مفخخ بالدموع والشوق والشهوة، امرأة خلقت لكي تصيبني بحالة من عدم التوازن والاختلال النفسي، الحب ذلك الكائن الخفي هو ما يجمعنا ويجعلنا مجنونين كفرح

طفولي عفوي، قلت لها وأنا أسحب المقعد وأنفاسي تعلو وتهبط بإيقاع سريع ومتوتر كأنني راكض عدة أميال حتى أفوز بهذا اللقاء: نهارك سعيد يا أجمل مفاجأة تليق بعمري..

ردت بعد ان تفحصتني بابتسامة تعلوها بعض من الجاذبية: أشتاق إليك بشكل أسطوري الملامح..

رديت: آه ... لو تدرين ما تثيرينه من براكين وخراب فى دوأخلي

ردت:- أحب أن تحتجزني داخل جسدك، وتطبق على كل قوانينك التعسفية صمتت برهة، ثم أضافت أنها ديكتاتورية عشقك

رديت:- سيأخذنى الزهو بعيداً..

ضحكت وردت:- أنها أمجاد السلطة . .

رديت: لكني ليس أكثر من إنسان أعيش معكِ مساحة حب جميلة هل تعلمي أنئ أخاف الرحيل ؟ لأن الرحيل دائماً يهدد أشيئنا الجميلة..

ردت:- هناك ما سوف يبقيك..

رديت:- ربما هذا الحب الذي يظهر فى عينيكِ اللتان تهباني بعضٍ من الأمان...

ردت:- قلوبنا تتمدد وتصبح جسرا" تحملنا إلى مدن تحكم بالحب وتسقط بالحب، انزوت إيقانا في عالم من التأمل في وجه خليل .. يا الهي كيف يقذف بي الحظ إلى مثل هذا الرجل بكامل مغرياته الأنيقة ؟! رجل يحمل كل سمات الجمال، أنه يضعني في بؤرة انفجار كوني ويدخلني في عالمه الذي يمتلئ الوأن تنبض حياة وألقٍ شفاف، يحملني يرحل بي نحو السماء وأصطاد النجوم نجمة نجمة ، رجل يدخلني إلى عالم الحب بدهشته العميقة..

انتبهت الى وجودي بعد ان خرجت من متاهة تأملها:- أريدك أن تحملني في طقس فرعوني وتهبني إلي النيل مضحية من أجلك ومن أجل أن تعود لي وطن للعشق، أحبك.. موسيقى جميلة تنبعث من أحد الأركان بانسياب وهدوء موسيقى تجعل الإنسان مثقل بالآهات وتستضيف فيه سمو الحب المليء بكبرياء عذاباته .

رديت: كلماتكِ تصيبني بدوار من الروعة تجعلني أشتهي دفئكِ .. ونظراتك الخفية تقودني نحوكِ حتى اتشظي على جدارك، لقد تعلمت معك كيف تتوحد أجسادنا وتنسجم أرواحنا وهذا ما يسمونه " فن الإدارة " فن أن تدير جسد امرأة تعشقها ضحكت بصوت عالي، التفت الحضور نحونا، ولغت الصمت من خارطة المكان .. قالت: دائماً تفاجئني بلغة غريبة لم أعتاد عليها!

رديت: هل تعلمين بفن التدبير؟

ردت: اتعني فن التدبير المنزلي

رديت: ليس ما أقصده .... ردت: أذن ماذا تقصد ؟

رديت: أن تدبري لحياتك رجلاً بكامل مغرياته

ردت: يا الهي إلى متى تشرح جثث اللغة بمبضعك الحاد !

قلت: أنها مهنتي ، مهنة من يحب امرأة تشبه نصوصها، امرأة تنحت أشعارها بأزميل يكشف عن ملامح إلهة مفرداتها فى لحظة الخلق، فدائماً للجمال رهبته وذهوله أنتِ الوحيدة التي احتفظت بها في ذاكرتي الحدسية تلك الذاكرة التي تحتفظ بالأشياء التي لا تتكرر من عمر الإنسان، مثل سعادة مطلقة تلغي حزنٍ مطلق ..

وبعد ان مرت لحظة من الصمت ردت: هل تذكر تلك المرة الأولى التي التقينا فيها ؟

رديت: نعم .. امرأة جذبتني نحوها بكل اهتمام أبنوسية طازجة في عز المطر، تبحر بالعمر نحو عوالم الأشياء الحقيقية ..

ردت: ما الذى جذبك نحوي بالتحديد ؟

رديت: أشياء كثيرة لقد كان حلمي منذ زمن أن أؤلف امرأة تشبهك، وأخطط لها مشروع سعادتها وأن أحقق لها أحلامها المؤجلة

ردت: أهناك شيئاً ما زال عالقاً بالذاكرة. ؟

رديت: عطرك العشبي الذى يميزك من بين ملايين النساء، لقد كان يدفعني نحو لغة شفتيكِ المحمومتان بلهيب النشوة..

ردت: هل تحب العطور ؟

رديت: نعم أحب العطور وتاريخها ..

ردت: هل لها تاريخ وأنها مثل الاكتشافات الأخرى التي غيرت من مسار الإنسانية ؟ فى هذه اللحظة كنت محتاج إلى سيجارة أمتص رحيق تبغها بشهوة عميقة ...

رديت: أن تاريخ العطور قديم قدم النساء أنفسهم واهتمت بهي كل الحضارأت السابقة، وكان لكل طبقة عطرها الخاص الذي تتميز بهي حتى يومنا هذا، والعطور" الباريسية " لا تقل عن الاكتشافات الأخرى فى عصر ما قبل التاريخ، كانت تتأملني بملامح فضولية واضحة على وجهها وباهتمام بالغ، ثم وأصلت .. أصبح العطر يتميز صناعياً وتاريخياً وثقافياً، ومنذ أكثر من عقد من الزمان كتب الكاتب الألماني " باتريك سوسكيند" رواية "العطر" تدور أحداثها

فى " باريس " القديمة بطابعها " الفولتري " في القرن الثامن أو التاسع عشر، أنها روأية تستعيد علم صناعة العطور وتاريخ صناعتها .. وتدخل إلى العمق الإنساني عبر رائحة الأجساد لتصنع الحب والسلام

ردت بابتسامة طغى عليها بريق أسنانها: أن التاريخ هكذا مشوق أحب أن أعرف معك كل الأشياء المتعلقة بالحياة والبشرية، رديت انه يصبح مشوق فقط إذا صحبته "أيدلوجية" للحب مسئولة عادلة متحررة من التحيز تاريخ به بعض من الشهوانية...

ردت ونظراتها تفضحها ببعض القلق: من أين تأتي بهذه الكلمات الباذخة الجمال فى معناها !

رديت: أنه الرصيد المعنوي الذي أضفتيه إلى يجعلني أتحسس الجمال في كل الأماكن والأزمنة، فلمجرد النظر إليكِ تسقط الكلمات بقداستها، أن جمالك يضئ لي ظلام حياتي .. خرجنا من المطعم، بعد أن سلبنا المكان كل كلمات العشق التي تقال اتجهنا نحو منزلي، أصبح منظره نظيف ومرتب، بعد أن قمت بحملة نظافة واسعة النطاق، فالحب العظيم أيضا يجعلنا ننظف دواخلنا من الشوائب .. علقت إيڤانا قالت أنه أصبح أقرب إلي منازل المتزوجين ..! اتقدمت نحو تلك اللوحات أخذت تتأملها بصمت وهدوء تام، كأنها المرة الأولى التي تراها فيها، ربما هناك صلة قوية بين اكتمال نصوصها، وتأمل واقعية اللوحة بالتحديد لوحات " سيزان " التي تتسم بحضور وأضح.. كانت تفعل مثلما فعل " أرنست همونجوأي " كان قد أعتاد بعد الانتهاء من ساعات عمله بالكتابة، أن يذهب يومياً إلى قصر " لوكسمبيرغ " لمشاهدة لوحات سيزان، ومانيه، ومونيه " وكان يقول: كنت أتعلم شيئاً ما من لوحات " سيزان " أنه يجعل الكتابة جملاً صادقة، وكافية

جداً لجعل الروايات تمتلك الأبعاد التي كنت أحاول أن أدخلها فيها، كنت أتعلم منه الكثير جداً غير أنني لم أكن أمتلك القدرة الكافية للتعبير كي أشرح الأمر لأي حد والى جانب هذا كان الأمر سراً... وعلى الرغم من هذه السرية، كان من الواضح أنه يقوم بما كانت تقوم بهي "غيرترودشتاين" قبله بخمس عشر عاماً، أي أن تتعلم من " سيزان " كيف تنظر وكيف تكتب أشعارها أنه الإيحاء المتشابه بين الشاعر والكاتب الرمزي والفنان الانطباعي.. أنها امرأة مصابة بالترف الذهني تشبع نهمها الروحي من لوحات " سيزان " وعطشها الرومانسي من رعشات جسدي وهدير انفعالي، أنها مثل آلة " الكمان " تصنع من أرخص أنواع الأخشاب، ثم تصدر أنغاماً يهتز لها الوجدان ..! فهي حبي الحقيقي الذي يجرفني نحو سعادة مدهشة وإحساس مرهف .. فجأة تذكرت معتصم، لم يتصل منذ زمن طويل، كنت قلق عليه بعض الشيء، هاتفته في جواله، لم يكن يحمله كانت المتحدثة شادية سألتها أن كان من الممكن ان يأتيا إلى منزلي والسهر معنا اعتذرت شادية وردت بجرأتها المعهودة: لقد أستلم معتصم عمل جديد في أحدى الصحف وهذه الأيام مشغول بكتابة بعض المقالات، لإغلاق هذه الصحيفة .. رديت: أذن عليه أن يجتهد ليغلقها سريعاً حتى أراه في أقرب وقت .. ضحكت شادية بصوت أنثوي بريئ وهي المرأة الوحيدة التي لم تعرف يوماً البراءة .. ودعتها وتمنيت لهما حظاً سعيداً مع العمل الجديد.. كان معتصم غريب آلاطوار في حياته مثل الممثل المضطرب في داخله ذاك الذي يمثل دون أن يتمكن من أن يعيش خارج أطار أدواره ومهازله الحقيقية .. وأن تكون فوضئ فكره عملٍ مقدس .. تجاذبنا الأحاديث في شتى المواضيع وحدنا وسط خلفية لموسيقى صممت لأجواء عشقيه، إيقانا تدخل في حالة من الهذيان بسب الحب بخدره الجميل .. كان حديثها يثيرني وكلماتها تغويني فتشعل

الحرائـق فـي جـسدي .. شـربنا وتـسامرنا بـدون وجـود للـسياسة وقـذارتـها، أصبحنا مثل عصفورين ثملين أنها تخلق أغراء فوضوي فى حواسـي امـرأة مثل مناخها الاستوائي ساخنة فـي العشق تـدفعني إلـى المـوت علـي صدرها، تقودني إلى عوالم بعيدة، تجعلني شاردٍ داخل مناخها بدوخانها المسكر اللذيذ، امرأة قاتلة حتى في لطفها وحنانـها أنـها تعزلنـي عن العالم في وجـود حبنـا الذي يطالب بحريته الكاملة.. أنتِ معي وحدي تستطيعين أن تمجدي أنوثتك، بالعشق وحدنا نمتلك الحقائق ونعبر عنها و بـرغم من بشاعة الحيـاة فنحن نبحث عن الخلاص ونجمل وجه الحياة بالحب .. غمرني عطرها وأدخلني فى دهاليز لم أتوقعها إلى شهوة كانت مؤجله..ثم انفجرت بكاء اللذة، والاغمـات، ووصول الروح إلى اعلى درجات النشوة .. لا أعرف إلى متى أدرس وأبحث فى " بيولوجيـة " جمالـهـا ..؟ مثلمـا قـال الـشاعر " ويليـام بليـك " " جـسد المـرأة يحـرك الحـسية البدائيـة التـي تنـشد أسـر العمـق الأسـطوري لخيالنـا الجمعي " لماذأ وحدهم الكتاب والشعراء يقرؤون جسد المرأة فقرة، فقرة وبأحاسيسهم، ويـدخلون معهـا إلـى عوالمهـا الحلزونيـة ؟ هـا نحـن يـا امـرأة الاستواء في ضوء خافت قلبان ينبضان أنفـاس دافئـة قلبك يتجـرع الـم الحـب بغيبوبتـه المجيـدة، وقلبـي مثـل وردة تحركهـا ريـح عاتيـة، فيـرقص رقـصة زنجية لساحر ينفث النـار في دمـي.. كسرنـا صمت الليل باحتفـالات الـشهوة والجنون البدائي .. كانت كعادتها أمرآة ذات إرادة شامخة في خضوعها للحب متعاليـاً فـى تواضـع الرغبـة تقـيس ضـعفي بحـرارة جـسدي ودقـات قلبـي المسرعة، وتقيس نـشوتها بصدئ قبلاتـي مـرت أكثـر مـن ثلاثـة أعوام منـذ لقائنـا الأول وحبنـا يـزداد اشـتعالاً. وهـي تـزداد توهجـاً فـى كـل يـوم يمـر، كنـا نخـرج مـن رحـم الليـل طفـلان نـضرين طـازجين برائحـة المـشيمة، ونـصبح نجمين تائـهين في السماء نلمع ببريق الحب .. حبها يجعلني كبوصلة، تحـاول

أن تحدد بإحساسها كل المسارات و الاتجاهات والفصول، معاً سنبقي بدون خديعة أو زيف أو معتقدات ان ما جمعنا هو الحب ذلك الشعور الإنساني الإسمئ، الذي لا يعرف عرق أو انتماء أو لون، انه الانفعال الوحيد الذي إما ان يبني الإنسان أو يدمره، أنه سعادة تفوقنا إلى حد الألم ... ذات ليلة خريفية عند العاشرة مساء كنت منهمكاً في كتابة أحدى المقالات النقدية رن هاتفي فى سكون الليل وصمته .. المتحدثة " سعاد " صديقة إيڤانا التي تعيش معها في المنزل ، كانت تتحدث بنبرة تمتلئ حزن ورعب وخوف شديدان ، سألتها بقلق: ماذا حدث؟

ردت في صوت باكي: لقد دخلت إيڤانا في غيبوبة ونحن الآن فى حوادث مستشفي الخرطوم ..

رديت وأنا فى أعلى حالات التوتر الغير عادي: فقط ربع ساعة وأكون معكم استبدلت ملابسي وانطلقت بالسيارة بسرعة جنونية كنت شعر بجفاف فى حلقي وعطش شديد أنه الخوف، لم أكن أعرف نوع المرض لكن كان لدى أحساس غير عادى بأن حالتها خطيرة .. فالحب أيضا يعطينا أحساس بالخوف، الخوف من أن تفقد إنسانة أحببتها وأصبحت تشكل كل شيئاً فى حياتك .. فى هذه اللحظة محتاج أن أرتمي في حضنها وأن أقبلها بقبلة تصبح أكسير لحياتها .. توقفت أمام بوابة المستشفي، كان هناك عدد كبير من المشردين صغار السن بعضهم يتسول المارة وآخرين يبحثون في قمامة أحدى الكافيتريات، عن بعضٍ من طعام يسدون بهي جوعهم فى هذا الجو الممطر البارد، أسرع نحوى أحدهم في السابعة من عمره هذيل الجسد عظامه بارزة من جسده ملابسه مهترئة يحمل قطعة قماش في يده، وعيناه غائرتان ويعض بأسنانه قطعة من قماش متسخة، يستنشق بها مادة

"السلسيون" كان يبدو في حالة من الإعياء التام طلب منى أن ينظف السيارة، أعطيته ورقة فئة وأحد جنيه، كنت أعلم جيداً بأنه لا يستطيع أن ينظف السيارة، لكني احترمت فيه رغبته في العمل، حتى يأخذ الأجر قليلين من لهم كبرياء خاصة في مثل هذه السن .. داخل المستشفي وجوه المرضى شاحبة يشعر الإنسان بالآمهم من أول نظرة، العنابر قذرة وبعض المرضى يفترشون الأرض فى انتظار سرير فارغ، يرحل صاحبه إلى أحدى المستشفيات الخاصة أو إلى الملكوت الأعلى ..! عبرت الممر نحو غرفة الإنعاش التي تستضاف فيها إيڤانا فجأة كسر حاجز الصمت صوت صراخ وعويل نساء، ماتت امرأة مسنة علي سرير الفحص يتجمع الزوار ليشبعون فضولهم أنهم يهزؤون من الموت !! لا أحد يريد أن يلقي نظرة على الموت في هذا المكان فالموت هنا بشع، هنا لا يمكن أن يشعر الإنسان بإنسانيته مطلقاً ، تذكرت صديق لي مقيم في أحدي الدولة الأوربية ، قال لي ذات مرة بأنهم تخطوا مرحلة البشر وأن أنظف مكان مستشفي الحيوانات ..! وجدت سعاد جالسة إمام غرفة الإنعاش وهي في حالة من الحزن الشديد وعدم التوازن النفسي، سألتها عن صحة إيڤانا كانت تتحدث وفي حلقها غصة حزن : قال الطبيب أنها أصيبت بنوبة قلبية حادة أثر قصور فى القلب، وربما تحتاج إلي جراحة مستقبلاً ..

سألتها: هل هي مصابة بهذا المرض من فترة طويلة ؟

ردت: كانت تفاجئها بعض نوبات الإغماء في فترات زمنية متباعدة، لكنها كانت تطمئنني بأنه إرهاق فقط وهي نفسها لم تكن تدرك نوع مرضها حتى هذه اللحظة .. زرفت سعاد دموع غزيرة بعد ان أنهت حديثها .. هربت من إمامها في اتجاه غرفة الإنعاش، دائماً الدموع اقرب في أجواء الحزن ..

منعتني الممرضة من دخول الغرفة كنت أريد ان اقبل إيڤانا علي رأسها وان أتحسس دفء يديها ... كنا معا ندمن غيبوبة الحب لكن ألان تركتيني وحدي ودخلتي في غيبوبة المرض، إنهما لا تتشابهان في انفعالهما .. الساعة الآن الثانية عشر من منتصف ليلة الخميس، انه خميس حزين فاجأني بفاجعته الكبرى، اليوم فقط افتقد ابتسامتك، أريدك ان تأتي لمنزلي لتعطريه بعطرك المميز .. أصبحت حياتي بشعة بدونك حاولت ان اقنع سعاد بالذهاب إلى المنزل وان تتركني مع إيڤانا، لكنها أصرت وسط دموعها بالمكوث معها، الحزن العميق دائماً يجعلنا في نقاء صوفي يبحث عن الحقيقة المطلقة، أعطتني رقم تلفون والدها ووالدتها في " كندا " ورقم تلفون جدتها في مدينه جوبا تحسبا منها لحدوث أمر طارئ، خرجت من المستشفي جلست خلف مقود سيارتي الساعة ألان الخامسة صباحا، انتظر خروجها من غيبوبتها ودخولها إلى واقعي..يا الهي ها أنا اجلس الآن احسب خسارتي إمامك وأنتِ ممددة علي سرير وحده يعرف سر انطفائك.. التوتر يكاد ان يقتلني ، أدخن بشراهة المطر يهطل بدون سابق إنذار الشوارع تلمع مبتهجة عند سقوط أضواء السيارات على الإسفلت تذكرت ليلة لقانا الأول بهذا المناخ الخريفي ... تنبعث من أستريو إحدى السيارات أغنية للمغني "كمال ترباس " أغنية "وجه القمر سأفر" لاشيء غير الصبر، فالصبر والصمت توائمان لا يفترقان، سرح خليل بعيداً يتأمل زخات المطر وهي تتشظي علي زجاج سيارته ، بعنف ثم تسيل بانحدار مثل جرح مزمن ينزف بألم... السماء تئن وتصرخ من جراء حملها الثقيل من مياه المطر، لحظة فقد حقيقية يمر بها عاشق... من ينقذنا من هذا الطوفان نوح أخر بفلكه، إما حسراتنا التي تعذب أجسادنا حتى الفناء!؟

فاجانى صباح ممزوج بلوعة الشوق لكِ يا ملأك أورثني من لحظات عشقه بعض من الجنون، البائعة المتجولين يتزاحمون علي بوابة المستشفي، اشتريت صحف الصباح ليس هناك جديد في عالم السياسة، لازال الخلاف قائم بين الحكومة والحركة الشعبية يواصلون في إبراز العضلات والمواطن متفرج كالعادة، اطلعت على بعض الملاحق الثقافية وجدت بعض من قصائدها وبعض المقالات النقدية التي لا ترتقي لمستوى النقد، ولا ترتقي لمستوي الابداع، لدينا نقاد لكن يصرحون دائماً بأنهم لا يجدون ما ينتقدونه..! صباح كئيب رغم نسماته الرطبة، اتجهت إلي غرفة الإنعاش ، وجدت سعاد جالسة إمام الغرفة ويبدو على وجهها الإرهاق والحزن سألتها عن حالة إيڤانا ، قالت ان الطبيب طمئنها لكن لا نستطيع ان نراها الآن .. طلبت منها ان تذهب إلي الكافتريا وتحتسي فنجان قهوة حتى يعيد لها نشاطها، جلست إمام باب الغرفة متأملاً كل لحظة جميلة مرت من عمر هذا الحب، كنت اسعد رجل في هذه الحياة، وإنا الآن إمام استفزاز المرض والحزن، أصبحت رجل بائس محطم على كرسي وحيداً أواسي جراحي .. لم أكن اعلم بان الحياة تعطي السعادة طمعاً فى الحزن وان القدر يتربص بمشاريع الحب فيهدم الوجه الجميل منها وقفت إمامي فجأة ممرضة ذات ملامح متحجرة تخلو من إي أنوثة وبصيغة أمر قالت: أنت زوج المريضة إيڤانا أنجلو ؟

رديت بدون تردد: نعم ماذا حدث لها ؟

ردت بكل بساطة: ألف مبروك أنها حامل..

تركتني في ذهولي ثم اختفت بين الممرات التي تؤدي للعنابر لم أكن قادر علي ان أقول لها أنها عشيقتي، في مجتمع لا يعترف بالعشق ويعتبره

مـن المحرمـات والاعتـراف الحقيقـي هـي ورقـة زواج معتمـدة بكـل أختـام السلطة، مثلها مثل أوراق ثبوتية لملكية سيارتك أو منزلك أو أي شيء تؤول ملكيته إليك بأمر السلطات ..! أنها امرأة أحبها بدون قيود أو أوراق وعادات امرأة مشرعة علي قلبي، كأنها مدينة تنهض ناعسة في صباحات احدى الشواطئ، هذا ما كانت تحلم بهي، طفل أو طفلة من جسدينا، يبقيا شاهدين علي حبنا.. كنت أفكر في كيفية ان تتقبل صحتها هذا الوضع الجديد، رغم علمي جيداً بأنها ستكون سعيدة مع حلمها الذي تحقق .. مثلما قالت " كيلوباترا " لقيصر روما كانت تقصد زوجته التي لا تنجب:- " المرأة التي لا تنجب نهراً جاف وأنا النيل " بدأت اشعر بهرمونات الأبوة وهي تسري في جسدي يزداد حنيني لها، وتدفعني أشواقي لسكب دموعي على صدرها الممتلئ حياة، معها أريد عالماً أكثر أمنا وسلاماً، وان أصبح نصها الشعري وأسطورتها الغامضة، التي لا تكتب في كتب أشعارها اشتم رائحة جسدها في جسدي، اشعر بحملها ثمرة عشقي في بطني...

حضرت سعاد نضرة بعض الشئ، بعد ان أزالت كآبة وحزن الصباح الذي كان بادئ علي ملامحها بفنجان قهوة، لم أشاء ان أفاتحها في موضوع الحمل لخصوصية المفاجأة، وكنت واثق من أن إيقانا بعد أن تعرف موضوع حملها سوف تطلعها علي الأمر.. ظهرت مرة اخرى الممرضة بوجهها الخالي من الأنوثة والابتسامة وسط ضربات قلبي المسرعة قالت باستعجال:- حالتها أصبحت مستقرة يمكنكم ألان الدخول لرؤيتها، كان يمتلكني شوق عظيم نحوها دخلنا الغرفة بهدوء وجدناها ممدة علي الفراش تنظر إلى سقف الغرفة بعيون دامعة، خطوت نحوها بحذر قبلتها علي رأسها ثم أمسكت يدها سرت رعشة خفيفة على جسدي، سقطت دموعها لا اعرف أنها دموع

الـشوق آم الـهـزائم المتلاحقـة مـن المـرض، تجعـل الإنـسان فـي حالـة ضـعف وانكسار قلت لها: هلي تعلمي بنوع مرضك ؟

ردت: حدثني الطبيب عنه ..

رديت: أنتِ ألان مطالبة بان لا تحزني، أو تفرحي بعمق، حفاظاً على صحتك.. ردت بابتسامة باهتة: ما فائدة الصحة إذا لم ترتبط بالسعادة

صمتت برهـة ثـم أضـافت :إذن يجب ان أعيش علـي هـامش الحيـاة وبتلقائية كالآخرين

رديت: أنت تعلمين مدي حبي لكِ وأتمنى ان أراكِ دائماً في سعادة ولا احتمل ان أفقدك للحظة، ثم أضفت لدي خبر سعيد من اجلنا ..

ردت وهـي تنظـر إلـي وجهـي كأنهـا تريـد ان تفـك رمـوز وشـفرات غامضة: ما هذا الخبر ؟

رديت: تحملين فى داخلك طفلٍ يخصني...

نهضت من الفراش بنشاط وسط ذهول سعاد، أخذتني في حضنها وكانت تردد: شكرا للرب هذا ما كنت انتظره، أنت الآن تعيش وتتنفس داخلي

حاولت ان اجعلها تسترخ علي الفراش لكنها رفضت وقالت: لا احتـاج إلـى المرض بعد اليوم فهذا الـذي فـي داخلـي زودنـي بقـوة حتـى أعيش مـن اجلـه، احبـك وأنـت تـشاركني هـذه المفاجـأة الـسعيدة أن لـم يكـن حبـك أستغفاراً،فلا أنتظر رحمـة من أحـد.. امرأة تحتفي بولادة جسد مغلف بحبنـا قـادم الـى الحيـاة ليزيـد مـن مـساحة الحلـم أنهـا تقايـضني بأسـيري الـذي فـي داخلها، انه خلق من دفء العنـاق و لـذة الحب و صـارت مفتـاحي نحـو عـالم الهدوء والسكينة .. مثلما خاطب الشاعر" احمد الشهاوي امرأته:

ما الذي رأت هذه المرأة

عندما فتحت باب جهنمها

وبصت لكتاب المفردات

هل بكت تاريخ لذتها

هل صارت سلالم روحها ناراً

هل خاصمت شوقاً

ينام في حقيبة شوقها

امرآة حاضرة بألفة الشوق، تزودني بالدهشة ورعشة اللذة، وتشعل حرائقها في الأماكن التي ترتادها الرتابة والملل، أنها تزخرف لي الحب وتجعله أجمل كائن وتغتالني بأجمل قبلة.. جهزت سعاد أمتعة إيڤانا بعد ان استشرنا الطبيب في أمر خروجها من المستشفي، وافق بعد ان اعطانا بعض التعليمات المتعلقة براحتها النفسية والجسدية، خرجنا واتجهنا نحو المنزل، كنت انظر إلى وجهها الذي تكسوه كآبة المرض وعيناها المتعطشة للحب... كانت صامته وساهية في مكان بعيد عن الواقع، حتى أنها لم تشعر بوجودنا معها في العربة، وصلنا إلى المنزل أدخلناها غرفتها ووضعناها علي الفراش كنت أحترق لها شوقا تسامرنا حتى هبط الظلام كان شوق عظيم يجذبني نحوها، وفي غمرة الفرح فاجأتها وقلت لها :- بعد ان تتماثلي للشفاء في الأيام المقبلة يجب ان نحدد موعد زواجنا حتى يخرج طفلنا إلى الحياة بهوية و وطن .. أظهرت ابتسامة رائعة بدأت السعادة تكسو ملامحها ردت: إذا يجب ان اخبر جدتي " كستيلا " لتحضر من مدينة " جوبا "..

رديت: من الأفضل ان نعلم والديك ..

ردت بنبرة حزينة: سوف أعلمهم بأمر زواجنا، كم أتمنى ان أراهم في يوم زفافي لكن الآلام التي سببتها لهم الحرب جعلتهم ينسون بان لهم ابنة ووطن، مثلهم مثل الآخرين الذين لفظهم الحظ خارج دائرة الحرب .. رقرقت عيناها بالدموع مسحتها بيدي ، شعرت بسخونتها .. هكذا الإحزان الحقيقية النابعة عن عاطفتنا تجعلنا نزرف دموع ساخنة ..

رديت مواسياً حزنها وقلبها الضعيف إمام لحظة الم خاطفة ربما افقدها وافقد سعادتي التي تكتمل بوجودها في حياتي: اتركيهم سوف يعودون هؤلاء الذين نحبهم يوماً لوطنهم، وسوف يغفرون للآخرين أخطاهم ويجنون ثمار صبرهم .. مثلما حدث "لسقراط " قتله اليونانيين لآرائه وأفكاره، ثم شيدوا له التماثيل في كل الميادين، وبذلك جعلوا من موته تمجيداً لفلسفته ..!

رن هاتفي .. المتصل معتصم ، أبلغته بما حدث لأيڤانا طلب مني ان أوصف له منزلها وسيكون معنا بعد نصف ساعة .. لن يضل طريقه لقد ترعرعنا في الأزقة والحواري، وكانت سعادتنا ان نستكشف الأمكنة والحياة من حولنا .. أصبحت إيڤانا اقرب إلى قلبي، بدأت تغوص في أعماقي تشدني نحوها بهدوء وقوة وجاذبية نحو حبها الذي وصل إلى اعلى ذروته، انه العشق الجارف إلى حد التماهي والانبهار، أنها تضعني علي أعتاب الانقراض وتعري ذاكرتي من أي اثر لامرأة أخرى غيرها . هل هي نظرية نرجسية الحب مقابل نظرية التأثير النفسي ..؟

رن جرس المنزل فتحت الباب، كان معتصم وبرفقته شادية القيا إلي بالتحية بنفس الشوق والحب الذي عوداني عليه لاحظت من الوهلة الأولي نضارة وجه شادية أصبح نقياً يشع منه ضوءٍ أخاذ يبدو أنها في هذه المرة استغلت انشغال معتصم بعمله الجديد فقضت فترة أطول داخل غرف نوم

الأجانب المكيفة الذين يديرون السفارات والمنظمات وجسدها .. أدخلتهما لأيڤانا في غرفتها تمني لها الشفاء العاجل ، وحضنت إيڤانا شادية وأخذت تبكي بحرقة شديدة ، مشهد مؤلم وحزين ساد المكان رهبة عميقة لماذا عندما تسقط الدموع يصبح صمت المكان هو العزاء الوحيد للحزن ؟ كنت اعلم جيداً بان مثل هذه الدموع دائماً عابرة ليس فيها حزن حقيقي، فالحزن الحقيقي يعيش في دواخلنا .. ابتعدنا انا ومعتصم حتى يتسنى لهما إفراغ شحنة حزنهما، وجلسنا في الصالون الخارجي ، وتحدثت معه في موضوع حمل إيڤانا وقرار زواجي منها، لقد اعترض بشدة بعد ان قال نحن ليس أنيقين بما يكفي لنستمر في حياة ذات اتجاه واحد، مثل الزواج وبعد شد وجذب وتأثر بالحمل أخيراً وافق، اعرف معتصم جيداً انه ضد المؤسسة الزوجية وضد ان يمتلك الرجل امرأة واحدة مدى الحياة، انه يعتبر ان العلاقات العديدة تجدد دماء وأفكار الرجل وتعطيه القوة . لا اعرف من أين أتي بهذه الأفكار المتطرفة ؟! ربما يرجع ذلك إلي معاناته في طفولته، والعنف والتسلط الأبوي جعله ان لا يفكر في تكرار التجربة .. هبط الظلام، وخيم حولنا الصمت ادخل معتصم يده في حقيبته ثم اخرج زجاجة خمر بلدي وهو يقول لي: هذا ما نحتاجه ألان خمره جيدة من خمر أم الخير.. من زمن بعيد لم اجلس مع معتصم مثل هذه الجلسة... كدت من كثرة المشغوليات أن انسي طعم الخمر، فالكأس الأول يراوغني، ثم يسري في جسدي بإيقاع بطئ وهادي انفعالاً واشد غموضاً .. تذكرتهم جميعهم كانوا يعانون مصيرهم الواحد مثلنا ويبحثون عن أجوبة لإسالتهم الحائرة، أبو نواس ، ابن الرومي ، رامبو، وفيرلين، وبودلير .. وجدوا عزاهم فى الخمر أنها تزيل الحدود بين الإنسان وحقيقته .. تحدثنا عن عمله الجديد وباهتمام اخرج لي مقال من حقيبته جاهز للنشر، ألقيت عليه نظرة سريعة كان يتحدث فيه عن مشكلة

غرب البلاد " دارفور "، هذا موسم تزمر الأقليات المهمشة التي ظهرت في وقت غير مناسب للحكومة.. قال لا اعرف لماذا لا تعترف الحكومات بأخطاها...رديت: أنت تكتب عن الديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان، إذن لا تتوقع ان تهديك الحكومة وروداً وإزهاراً أنها مسميات لا تريد سماعها السلطات ..

رد وهو ممتعض بعض الشئ: ان الهنود لديهم الذرائع والمبررات لرفض الديمقراطية، تعدد عرقي وديني، فقر وأمية وتوتر علي الحدود مع جيرانها، ومع ذلك لديهم أعظم ديمقراطية ولم يضعوا في حياتهم قانون طوارئ ..!

رديت: كل الشعوب تريد الديمقراطية نظام لحكوماتها، لكن دائماً للسياسيين أجندة خفية لا تطبق في وجود الديمقراطية، عدم الحوار بين المثقف وسياسي السلطة يخلق فجوة كبيرة داخل المجتمع ويؤدي ذلك إلى ظهور الديكتاتورية ..

رغم توقعاتي بان يسبب هذا المقال بعض المشاكل مع السلطات، شجعته علي ان يفعل ما يراه مناسباً وقلت له:- يحكي ان " لويس السادس عشر " ملك فرنسا في أيام الثورة الفرنسية، انه اطل من نافذة زنزانته في باريس، فوجد جمهرة من المواطنين يحملون نعش الفيلسوف " فولتير " الذي نقلوه من قبره الوضيع ويريدون الاحتفال بدفنه من جديد في ضريح ضخم، فقال الملك وهو يشير الى النعش : " كل ما نحن فيه من مصائب جاءتنا من هذا الرجل "

ضحك معتصم وقال: نحن نتمنى علي الأقل ان يكون لدينا قبراً، ثم أضاف هكذا الديكتاتور يأتي إلي السلطة عبر البنادق والتعذيب والمشانق، ثم

يأتي اليوم الذي يرحل فيه إلى المنفى أو يموت بعد ان، كان يقول لوزرائه بعد كل عمليه إعدام " لا تنزعجوا بسبب بعض الخونة الذين لا يشرفون وطني" ..

رديت: أنه عداء قديم مستفحل بين المثقف والسياسي، ولن ينتهي بانتهاء الأنظمة الديكتاتورية، لكن سينتهي متى ما أدرك السياسي واقعه المعاش وخرج من أحلامه التي يصنعها له سدنته..

رد معتصم: لن يخرج السياسي من أحلامه ما دام لديه قابلية ليصبح فرد فاسد، ثم أضاف وبغضب مقالاتي هذه لا تعادي السلطة، أنها فقط توضح للمواطن ما يحدث من حوله ! لقد مللت من هذا الاضطهاد التعسفي ، وقررت ان أواصل حتى أخر رمق ردیت: ان ما يعجبني في شخصيتك هي قوة الإرادة والإيمان، رد وهو ضاحك بتلك الضحكة التي تحمل مزيج من الدفء والحزن:- خلقنا لكي نتحمل الآم الآخرين، ولا يهم سلخ الشاه بعد ذبحها ..ثم أضاف ان نكتب هو ان نكون في لعبة يومية مع الموت، هذا ما فهمناه نحن الذين تتوق أرواحنا للحرية، ومن عاشوا في ذلك البرزخ ما بين الحياة والموت، صب كأس بهدوء وحذر وتجرعه دفعة واحدة بعنف وغضب، ثم أضاف: نحن يا صديقي فئة الكتاب تتجلي فينا براه وبدواة الحياة نعيش بعرانا مثل حصان بري طليق لا يلجمه لجام، لن نصير مملوكين لأحد، ولن نترك أحد يمتطى صهوتنا، فالكلمة الصادقة لا تقتلها رصاصة غادرة أو استبداد، فهي لها مناعة من التاريخ والزمن، فلنتجاوز هؤلاء الأقزام بفكرهم الهمجي البربري، ضحك خليل من سخرية معتصم اللاذعة رد قائلاً : جميع الأنظمة الفاسدة يا صديقي رغمٍ عن استبدادها وخطورتها، معرضة للتفتت والتلاشي والسقوط، لان سلاحها ورق وإعلامها أجوف يتلاعب بعواطف

البشر، رد معتصم بانزعاج وهو يلوح بقبضته في الهواء كأنه يلاكم أشباح : يجب ان أواصل كفاحي لأنني لم اخلق لأكون تابع، أقف بين الجمهور وأرمي بالزهور على الطغاة واهتف بحياتهم، أنا كائن يتنفس الحرية وكل مايموت طاغية يزداد عمري فانا اكتسب من موتهم وزوالهم حياة، وحالما يزول الظلم وتعم الحرية سوف ارحل بعيداً، إلى أين ليس لدي ادني فكرة ؟ من العار ان نفكر إلى أين نذهب بعد ان نرحل من عالم الطغيان !! ثم ضحك ضحكة ظهرت على ملامح وجهه بعض الاسئ والحزن، ثم اضاف وهو في هذيان سكره : المدى ضيق وزماني انتهي في الكؤوس ولدي شجن الى افق بعيد الموت تضحية رخيصة إذا الامر تعلق بالحرية، بموتي أكمل حياتي .. كنت أدرك جيداً شعوره وإحساسه نحو الحياة، نظرٍ ما أحاط الوطن والمواطن من انكسارات وخيبات، تركت من شروخ وجراح في الروح إضعاف ما تركته في الجسد، جسده الضعيف بوهنه... في محاولة ان أخرجه من عالمه الكئيب وان اقطف ثمار مرحه، رديت : يقول سقراط، تكلم لكي أعرفك، والدكتاتور يقول، تكلم لكي أقتلك، ضحك تلك الضحكة الخارجة من أعماقه وهي سر نقاء وجدانه الجميل وجدان مناضل، معتصم متفائل بان هناك عصر جديد ينتظر البلاد ستسود فيه الديمقراطية والرخاء والحب والسلام....!

لا اعرف متى سوف يحدث ذلك وغرب البلاد في حالة نهب وقتل وسلام هش ومشكوك في أمره بجنوب البلاد وبوادر أزمة سياسية وحرب في الشرق، وتذمر وتهميش في الشمال واختلاسات وفساد ومحسوبية وترويع للمواطن في الوسط جميعنا نحلم بالجنة لكن لم نراها..! قال :- هناك شيء واحد اعلمه عن مهنتي هذه،أن لقوة الصحافة تأثير على هذا المجتمع وباعتبارها البديل المتوج لخلق مجتمع صحي معافأ من الفساد، ومتابعة اخلاقيات المجتمع سنواصل الأيمان بعملنا وهذا ما يجعلني اعشق هذه

المهنة التى تجعلني أقف على حافة الخطر،احياناً تمنحني الحزن أكثر من السعادة ودخولي في طقس الكتابة عن الحقيقة الغائبة عن المواطن البسيط هي أكبر سعادة وأبداع في حياتي، والأبداع ليس فرحاً فردياً.إنه فرح أعيشه ثم أمنحه للجميع من خلال مقالاتي رديت :- لا توجد صحافة حرة هنا عليك أن تعيش في الواقع الذي فرضه المجتمع،رد بأمتعاض وأضح :- ليس من المستحيلات خلق صحافة قوية وحرة ونزيهة وغير تابعة لسياسة الدولة،ولا تنكسر أمام أي قرار عشوائي أو همجي بتكميم الأفواه التي تنادي بالحرية،وحق العيش بكرامة وحق التعبير عن الأفكار الأيجابية لتنمية مجتمع الرفاه الأخلاقي وليس الشتم، قلت له : كلامك يخيفني إلى درجة الرعب،لم أجد إنسان متفائل مثلك إلى هذا الحد .. رد : أجل أنا متفائل لقد خرجت من تجربة الموت انتحاراً من قبل وفدتني أمي،وخرجت من جلسات التعذيب فى المعتقل دون أعاقة نفسية،ويمكنني القول أنني خرجت من أغوار الموت،أعرف ان التفاؤل ليس سهلاً،وليس وسيلة سهلة لتجاوز الصعوبات أو لتجاهلها،تفاؤلى لا يتزعزع وهو راسخ لأنه ينجم تحديداً من اليأس .. كنت أراقب إيڤانا وشادية كانتا تضحكان بود ومرح عظيمان، أدركت بان شادية علمت بموضوع حمل إيڤانا .. كانت تسري موسيقي عذبة تصدر من جهاز الكاسيت أغنية رائعة للفنانة الأمريكية "ويتني هيوستن" تؤلم كالجحيم تقول كلماتها:-

شيء رائع بالنسبة لي

لتراه يكبر بداخلك لتشعر بقلبك بجانبه

أحياناً نتألم من شدة الحب

كلمات تفضح الآم العشق، لوحة فنية متكاملة، موسيقى لحن سماوي، كلمات مثل تعاويذ سحرية، صوت ملائكي، ذلك العشق الذي نخص بهي امرأة من دون النساء أنه العشق الذي جعل الملك سليمان يتحول من شخصية الملك النبي المعروف بقوته وحكمته وتسخيره للجن وكافة المخلوقات إلي عاشق ينشد " نشيد الإنشاد " بما فيه من وله وتيتم وعاطفة، كذلك الديكتاتور النازي " أدولف هتلر " كان يتحول إلى عاشق يرتجف ولهاً ويصبح حمل وديع إمام عشيقته " ايفا براون " أنها قوة العشق إما ان تعدم الإنسان من الوجود أو تنفيه إلي عالم إنساني تتحد فيه الماء والنار وتخفف فيه القوة بالشفافية .. يا حبي الاستوائي أنتِ عشقي الأبدي شدي أشرعتك نحوي لتسكنين شاطئي وتسترخين على ضفتي حتى أعانق مقلتيك يا زمردة سوداء يخطف شعاعك ضوء الصباحات الأولى امرأة تثيرني بلذة ان أتأملها في استرخاء الحمل بحنانه المحاط رحمة وشفقة واصبح مهووس بأنوثتها التي تخضعني إلي درجة الامتلاك .. أصبحت تستيقظ من النوم بملامح نضرة يوماً بعد يوم ، وتركتني في صراع مع رغبتي وأنا أحاول ان اكبح جماحها خجلاً واحتراماً لها لن المرأة في بدايات حملها الأول تصبح في قمة إحساسها المرهف، نحو القادم من جسدها ، ذلك الكائن الجميل، الذي استحوذته بشهوة الحب وشهية رجل يحمل رائحة كلماتها الخارجة من بين اسطر إشعارها .. بدأ تفكيري ينصب نحو صحتها أصبحت اذهب إلى عملي في الصباح، وفي المساء اسهر قربها أراقب صحتها وأصحح لها نصوصها الشعرية لقد كانت في فترة الحمل هذه مصابة بحالة من الانهمار في الشعر، كتبت عدد كبير من القصائد حددنا في الأسبوع القادم موعد زواجنا لحين حضور الجدة "كستيلا" كانت لا تخرج من المنزل لا عندما تدفعها الضرورة للخروج وتكثر من الاستماع إلى الأغاني العاطفية،

بدا يشع من وجهها بريق ساطع وأخذت تزداد جمالاً يوماً بعد يوم، وكانت بعد أن تنتهي من الكتابة تقضي بقية الوقت، في النظر والتأمل في دمي وملابس الطفل القادم التي أهدتها لها صديقتها سعاد كانت تقول لي دائماً:- بأنها بدأت تشعر بالحب الآن فقط !.. لم أتوقع منها أن تحمل لي جنيناً فى هذا الوقت كنت أريد أن تصبر قليلا حتى اشعر معها بقوة الحب، كنت أريد ان استنفدها ان أصبح السبب في انتهاء مدة صلاحيتها لأي شخص غيري حتى لو كان طفلي القادم .. مرت الأيام بطيئة تصنع لنا قلق وتوتر .. اتصلت الجدة " كستيلا " بأيڤانا في إحدى الصباحات وقالت أنها وجدت مكان لها في طائرة " الجيش " بعد تعب شديد ومعاناة وكان ذلك سبب التأخير وسوف تصل إلى مطار الخرطوم بعد عدة ساعات ، لقد كان السفر من "جوبا " إلى " الخرطوم " والعكس بطائرات " قوات الشعب المسلحة " خاصة طائرات الشحن من طراز " الهيركليز " التي تنقل العتاد والتموين ، كانت " جوبا " مركز تموين وإمداد، لذلك صنفت من ضمن مناطق العمليات العسكرية ، لذلك كان ممنوع تحليق الطائرات المدنية أو هبوطها في تلك المنطقة وللسفر على طائرات " الجيش "، كان على الشخص ان يرابط بالمطار لعدة أيام أو أن يكون علي معرفة بأحد الرتب العسكرية أو احد الإفراد المتمركزين بالمطار ... الساعة السابعة صباحاً كان موعد لقانا فى المطار بالجدة " كستيلا "، وسط زحمة القادمين بأمتعتهم ورائحة الفاكهة الذكية، وفتيات جوبا المشهورات بجمالهن الساحر وابتسامتهن الخلابة، التي تطمئن من يصادفهن بأنه لا توجد حرب ومعاناة في ذلك الجزء من الوطن،ها أنا أسمع صوت الحياة السرمدية،برغم الحرب وبرغم الأستبداد الحياة مستمرة هذا ما يجب أن نؤمن به لأن النضال فى سبيل جعل شرط الحياة أفضل هو أن نتعرف على قيمة الحياة،ونسميها باسمها وندافع عنها .. لمحت إيڤانا الجدة "

كستيلا " هرولت نحوها دخلت في حضنها سقطت دموعهما من حميمية اللقاء، شخص واحد في الحياة نجد في حضنه وطن .. قدمتني إيڤانا إلى الجدة كستيلا امرأة مرحة تمتلئ حنان، ساخرة تحب مداعبة الآخرين، أنها رائعة تصنع سلام نفسي لمن يلتقي بها أول مرة .. انطلقنا نحو المنزل بالسيارة وكانت إيڤانا تسأل عن أحوال صديقات طفولتها ، وكانت الجدة ترد في تهكم وسخرية:- الجميع ذهب نحو المناطق الآمنة واغلبهن حضر هنا في الشمال خرج الجميع من ويلات الحرب ليجدوا فرصة حياة وبعض من الخبز ، جوبا أصبحت شبه خالية وأكثر ما يشد انتباهك كثرة ملابس الجنود المنشورة خارج المنازل، الجميع التحق بالجيش حتى يحمي نفسه يا الهي كم هي الحياة مؤلمة هناك، إصابتنا بحديثها هذا ببعض الحزن والوجوم لبعض من الوقت ، وبعدها عادتا الجدة كستيلا وأيڤانا إلى المرح .. هكذا الحياة يجب ان يقذف الإنسان بالحزن خلفه مثل رداء متسخ ويستعين بالسعادة لأنها المضاد الفعال لالآمنا لا اعرف إلى متى نصبح هكذا ينابيع من الحزن المتفجر ؟ وحدنا إمام الحياة نصنع جحيمنا، لا بد من منقذ حقيقي يوقف نزيف الحرب، ويأتي بسلام بحجم الوطن ويحقق طموحات هذا الشعب الذي خلق من أحشاء المعاناة، وصلنا إلي منزل إيڤانا أنزلت أمتعة الجدة كستيلا وتركتها لترتاح من إرهاق السفر خصوصاً أنها استقلت أرداء أنواع طائرات الشحن العسكرية وعدت إيڤانا بالحضور مساءٍ، اتجهت نحو الجامعة ألقيت محاضراتي كان تفكيري مشغول في أسئلة مرهقة وهي كيف تتقبل الجدة موضوع حمل إيڤانا ؟ وما رأيها في موضوع الزواج خصوصاً بعد ان التقيت بها ؟ انتهيت من عملي اتجهت نحو منزلي ، حاولت ان استرخي كان ينتابني توتر غير عادى .. بدونها تنتابني الكآبة وأعاني من الوحدة والكئابة حاولت ان اضغط علي أعصابي حتى اخرج من سوداوية أفكاري، تناولت

رواية قصيرة تحتاج لصفاء ذهني " مذكرات عاهراتي الكئيبات " للكاتب " غابرائيل غارسيا ماركيز " رواية تضج بالحب وتناقضاته، تحكي قصة رجل تجاوز التسعين من العمر يصادق فتاة في ماخور يرتاده، عذراء صغيرة في سن الرابعة عشر ربيعاً، ليس لديها ولو جزء يسير من خبرة هذا العجوز في الحياة، يتوله بها ويغدو مجنوناً بحبها، وفي كل زيارة لها في غرفتها في الماخور يحمل لها من الحلي إلى الحلويات، ويسمعها أجمل المقطوعات العالمية التى يحبها، ويحضر معه بضعة كتب، ليخلق لها عالماً عذباً وثرياً وكان يحضر ثلاثة كتب ليقرأ لها منها، وهي رواية " الأمير الصغير " للكاتب سان اكزوبيري " و " إلف ليلة وليلة " نسخة منقحة ومهذبة خصيصاً للأطفال وكتاب " حكايات تاريخ مقدس " للكاتب شارل بيرو" ، ويخلق للفتاة أجواء رومانسية تمتلئ بعبق الشرق ووسط صوت الموسيقى الأكثر حميمية، يقرأ لها من أجمل الكتب التي يحبها، وكانت إلف ليلة وليلة لها الأثر الأعمق، ثم فجأة ودون إشارة يفعلان شيئاً غير عادي، يقحمان نهجاً مغايراً من السرد ينسابان كما ينساب الماء الهادئ في جدول، ليحيلا كل شيء إلى عوالم من السحر عوالم مذهلة خارقة، وهذه الانسيابية تحدث هزة عنيفة لدي القاري و انتفاضة في الوعي، وتجعله يشعر بان ما يقرأه خارج الواقع والمعقول بسحره الصادم، إلى حد ان الرجل التسعيني أراد ان يحتفل بعيد ميلاده التسعين، وأراد ان يكون احتفاله بعيده ليلة من المتعة الجنسية الخالصة، مع عاهرة عذراء صغيرة السن، وهو لازال يملك الرغبة الجنسية والطاقة، والآلة الجنسية الفعالة لممارسة الجنس وافتضاض فتاة عذراء ..

رغم ان هذه أخر إعمال "غابرائيل " إلا انه اثبت بأنه لا زال لا يستهان بهي وهو يبلغ التاسع والسبعين من عمره، انه لا زال يتحكم في كلماته التي تتأرجح فيها الرموز وتدخل القارئ الى عوالم أساطيره لديه لغة متكاملة

بتعاقبها السلس لا احد يمكنه التنبؤ بما يحدث في رواياته انه يحرك شخوصه بسرعة ويقيم عوالم من العدم انه في حالة خلق مستمر لنصوصه العبقرية، ان الرواية تحمل نفس السمات الرائعة التى يتمتع بها ماركيز وحده، اللغة وتقنيات السرد، وأسلوبه السلس الهادئ الإيقاع، والمزج الجميل بين الجزئيات التافهة والإحداث الضخمة في سياق واحد، وهو يروي أكثر الأشياء تعقيداً وفداحة....السابعة مساء توقفت إمام منزل إيڤانا انه موعد مسائي يختلف عن كل المواعيد السابقة جلست مع الجدة كستيلا وبعد عدة مناورات فتحت لها موضوع زواجنا إنا وأيڤانا قالت: لقد تحدثت معي إيڤانا في أمر زواجكم وانأ موافقة خصوصا بعد ان أدركت جيدا شكل العلاقة التي بينكم وإنها تحمل منك جنيناً في أحشاها .. ولكي يكون هذا الزواج علي حسب عاداتنا وتقاليدنا يجب ان اخبر أعمامها وكبار العائلة حتى يباركوا هذا الزواج، رديت بعد ان شعرت بان حديثها موجه نحوى: أوافق وليس لدى مانع فى ذلك ..

ردت إيڤانا بعد ان أثارها حديث جدتها وأخرجها من صمتها: جدتي أنت تعلمين إني لا اهتم بالشكليات في حياتي إنا أحب خليل وهو يحبني بنفس القدر ونريد الزواج إذا ما دخل العادات والتقاليد في هذا الأمر..!

ردت الجدة كستيلا بعد ان ظهرت علي ملامحها بعض الاستياء: أنت مثل والدتك راسك صلبة ، لقد أتعبتني خصوصاً بعد ان أكملت تعليمها هنا في الخرطوم ، لا اعرف ما هذا الشيء الذي تجدونه هنا فيدير رؤوسكم عن عاداتكم وتقاليدكم التي ولدت مع أجدادكم !

ردت إيڤانا بنبرة يشوبها الحزن والأسى: عندما فتحت عيني في هذه الحياة وجدتك جزء من حياتي وحبي لكِ يفوق حبي لأبي وأمى، وأنتِ تعلمين

بذلك فقط أعطيني فرصة حتى أعيش بسعادة وأقرر شكل حياتي وارتبط بالإنسان الذي أحبه واقضي معه بقية عمري ..

دخلت الجدة في حالة من الصمت والهدوء برهة من الزمن، ثم نظرت في وجه إيڤانا كأنها تدقق في ملامحها لأول مرة ونظرت إلى وجهي ثم ردت: أنت تعلمي جيداً مدى حبي لكِ وأنا الوحيدة التي وافقت علي زواجكم دون إي اعتراض لكن اطلب منكما أن تعطياني مهلة لبعض الوقت حتى يتسنى لي ان اخبر أعمامها وضحكت ثم أضافت لم يتبقى لي سوي بضعة أعوام ويجب ان أراك سعيدة يا ابنتي ..

ظهرت على إيڤانا بعض ملامح الراحة فأظهرت ابتسامة ذات طله بهية أخاذة جهزت لنا سعاد العشاء كان شهياً ولذيذ ، لا اذكر أخر مرة تذوقت فيها طعام مصنوع في منزل وفي مناخ اسري منذ بداية حياتي العملية وإنا ارتاد المطاعم وأصبحت صديقاً دائماً لها لا افرق بين الطعام الجيد والردى . كانت الجدة كستيلا تداعبنا بتعليقاتها الساخرة وتجهز لنا بعض من إطباق الفواكه الاستوائية خاصة المانجو والأناناس ضحكنا وتسامرنا حتى منتصف الليل .. دائماً السعادة في دواخل البشر هي النقطة المضيئة وحقيقة وجودنا، أنها ذلك المجهول الجميل.. أصبحت اقضي اغلب الوقت في مطالعة الكتب والكتابات النقدية ، واقضي الليل في السهر مع إيڤانا والجدة كستيلا وسعاد، أصبحنا أسرة واحدة نشعر ببعضنا البعض تكتمل لحظات الفرح الجميل بوجودنا أسقطنا كل الحواجز والأقنعة من حولنا وفي مرات منقطعة كان يأتيا الينا معتصم وشادية وكعادة معتصم، كان يستغل هذا التجمع المؤتلف وحالة الغليان التي تشهدها البلاد ويلج إلى السياسة عبر ابواب النقاش، وطن آيل للسقوط، وطن علي حافة هاوية عميقة يسكن.. فيدخل في نقاش طويل مع

إيڤانا وأحيانا معي، ثم يعود ويضحك تلك الضحكة البريئة التي كانت تقنعنا بأن السياسة خارج وجدانه لقذارتها، إما داخل وجدانه كان يحمل الحب والتسامح لهذا الوطن.. اتصلت إيڤانا بعد ان مضى ما يقارب من أسبوع من مفاتحتي فى موضوع الزواج كان صوتها مثل نسمة صباحية باردة قالت: ان الجدة "كستيلا" تريد أن تتحدث معي اتجهت إلى منزلها وعدة اسأله تدور في عقلي هل رفضت من قبل أعمامها آم ان الخلاف لازال في العادات والتقاليد ؟! .. أصعب شيء في الحياة ان يتوقف مصيرك على قرار يمتلكه الآخرين .. استقبلتني إيڤانا كعادتها كانت طازجة مثل فاكهة تستقبل ربيعها الأول دخلت إلى غرفة الجدة كستيلا القيت لها بالتحية ثم طلبت منى ان اجلس، جلست وأنا في حالة من التوتر والضغط العالي، بدأت الحديث وعلى وجهها شيء من القلق والحزن: لا اعرف من أين ابدأ معك هذا الحديث لكن الأهم يجب علينا ان نواجه أشيائنا بقوة و إرادة عظيمة .. لقد رفض أعمام إيڤانا طلبك للزواج منها لأنك ليس علي دينها وهي من أصول افريقية من الجنوب وأنت من أصول عربية من الشمال، والخطاء الاكبر انها حملت منك جنيناً في أحشاءها دون علمهم ...

يا الهي ليس من الممكن ان تكون الحياة بهذه الوحشية .. كيف يخلق الله البشر ويخلقون هم الحواجز بينهم ؟ فالحب وحده يقود الإنسان نحو حياة نظيفة لا عادات وتقاليد وأصول وأجناس لا دين ، وحدنا بالحب قادرين علي العيش بسلام نفسي وسعادة ، أن مفهوم التسامح هو حقيقة الأيمان بالمساواة وهي قاعدة تقوم على الاحترام التام بين الاختلافات المتعددة بين البشر والهويات واحترام كل إنسان لقناعات الآخرين... وليس هناك أي دافع قوي أو مقنع أو متوهم يعطي الفرد منا مبرراً بالتفوق أو التميز على

الآخـرين سـواء كـان هـذا التميـز دينيـاً أو عرقيـاً أو طبقيـاً والحـط مـن قـدر الآخرين..... تدخلت سريعا بعد ان شعرت بحجم الكارثة التي تحاصرني.

رديت: جدة كستيلا أنت تدركين مدي حبي واحترامـي لأيڤانـا وعلاقتنـا أعظم واكبر من هذه المفاهيم الخاطئة ويجب ان تقنعيهم فقط مـن اجلنـا فأنـتِ الوحيدة التي تعلمين بمدى حبنا لبعض ..

ردت:-سوف افعل ما بوسعي معهم وأنا أدرك جيداً إذا لم تحبك إيڤانـا حب حقيقي لما حملت منك جنيناً فـي أحشائها وبرغبتهـا، وأيڤانـا نفسها لم تترك لى الخيار حتى أقرر فهى قررت بحملها منك، فقط احتـاج لمساحة زمـن حتى اقنع الأطراف الأخرى في العائلة قليل من الصبر كل شـيء يـصبح علـي ما يرام ..

خرجت نحو منزلي وإنا اشعر بحالة حزن شديد، لقد أصبح أملـي الوحيد هو الجدة كشتيلا ورغم ما حدث فقد كنت معجب بحديثها المتزن والـواقعي، أنهـا تبهرنـي بذكائها ومنطقها السليم .. المرأة العظيمـة تـصبح عظيمـة حتى بعد ان يذهب الدهر بملامح جمالها .. كنت التقي إيڤانا في منزلي من وقت لآخر وكانـت تـصر علـي موقفهـا إصرار شديد فـي حالـة عدم موافقـة أعمامهـا علـي موضـوع الزواج سوف نتزوج بدون موافقتهم ولا احد يستطيع ان يمنعنـا من ذلك .. لقد أصبحت في الفترة الأخيرة متوترة تغضب لأبسط الأشياء ودخلت فـي حالـة مـن القلق الدائم، كنت أخاف عليها من إي وقت أخر فصحتها لا تستحمل هذا الـضغط النفسي، والحل الوحيد ان اصبر للجدة كشتيلا حتى تقنـع أعمـام إيڤانـا .. ذهبت إلي الجدة كشتيلا وتسامرنا معاً وبطريقة غير مباشرة تطرقنـا إلـي تـدهور صحة إيڤانا في الفترة الأخيرة قلت لها: أخاف ان يحدث لها مكروه فمنذ معرفتي بتا لم أراها بهذا الإحباط النفسي ..

ردت: لا شيء يشغلها غير حبك الذي تريد ان تتوجه بالزواج فعندما تحب امرأة رجلٍ لا يذهب تفكيرها في شيء أخر، غير أنها تريد ان تمتلك هذا الرجل بقوة روحها وجسدها ..

رديت: و ماذا نحن فاعلون ؟

ردت: غداً لي شأن مع أعمامها فانا لا أريد ان افقدها بسبب تصلب رؤوسهم نهضت ثم اتجهت نحو الغرفة الأخرى ..

وحضرت بعد عدة دقائق بعد ان استبدلت ملابسها بفستان زاهي الألوان ساطع ثم طلبت منى ان أوصلها إلي الكنيسة لصلاة الأحد، كانت تحدثني على طول مسافة الطريق عن الإنسان الذي يصنع الخطيئة، والرب الذي يغفرها بكل تسامح ومحبة انتظرتها قرب الكنيسة حتى انتهت من صلاتها، كانت جالسة في السيارة في طريق العودة للمنزل وهي صامته تتأمل الطريق بهدوء، ربما كانت تفكر بصفاء ذهني وتركيز أو ربما لازال قداس الأحد بمواعظه المؤثرة يمتلكها .. وصلنا إلي المنزل وجدنا إيڤانا وسعاد شكرتني الجدة كشتيلا ودخلت غرفتها ، سألتني إيڤانا ان كانت الجدة كشتيلا تشعر بإعياء رديت: لا فقط ذهبت معها إلي الكنيسة وأدت صلاة الأحد ثم عدنا . ردت إيڤانا: منذ زمن طويل لم أراها بهذا التوتر ..

ردت سعاد:- من عدة أيام وعقلها مشغول بموضوع الزواج، حتى أنها أحياناً ترفض الطعام

رديت:-أنها تحاول ان تفكر بصفاء ذهني

حاولنا ان نكسر حاجز الخوف من القادم في المستقبل ببعض المرح، لكن القلق كان واضح علي قسمات وجه إيڤانا .. لم أكن اعرف بان الأمور سوف تسوء إلى هذا الحد !! ذهبت إلي منزلي اليوم مبكراً بعد ان شعرت بان

المناخ في منزل إيقانا متوتر، إلى درجة انه ينذر بوقوع وخلق مشكلة في هذا الجو الأسري الجميل .

هبط الليل وطفت الالآم على السطح، لم استطيع ان أنام كنت مصاب بأرق شديد وشعور بالوحدة يكاد يحبس انفاسي ، وبعد ليل مشحون بالمعاناة أشرقت الشمس هذا ما كنت أريده ان تبدأ الحياة اليومية بضجيجها حتى أنسئ لحظات الحزن التي تغلف ذاكرتي، كنت محتاج ان اصنع لنفسي فنجان قهوة قوية، حتى تطرد الفتور والكسل من جسدي اتجهت إلي العمل يا الهي ما هذا اليوم الكئيب ؟ حتى الجامعة مناخها مشحون بالتوتر بسبب انتخابات اتحاد الطلاب وموقع رئاسة الاتحاد، انه موقع ممتاز لإصدار القرارات والتحكم في سياسة الجامعة، واغلب الأحزاب تعتبره من المواقع الإستراتيجية لزيادة واستقطاب قاعدة شعبية جديدة، عبر تجنيد الطلبة الجدد الوافدين إلي الجامعة بشعاراتها الأيدلوجية البراقة، الأغرب ان الطلبة تركوا منابر الأحزاب واتجهوا نحو التجمعات والكيانات التي تطالب بالعدالة والمساواة الاجتماعية، مثل منبر أبناء دارفور، ومنبر أبناء الشرق ومنبر أبناء الجنوب،، وحتى هناك منبر أبناء الشمال، الذين بدئوا يتذمرون من تهميش الحكومة والزحف الصحراوي، الذي جعلهم يتركون قراهم المتصحرة ويتجهون نحو الاغتراب خارج الوطن والى العاصمة بحثا عن حياة أفضل .. وبدأت الحكومة فى بيع أراضيهم الزراعية لمستثمرين أجانب .. ان الحكومة بدأت في خلق فجوة بين أبناء الوطن الواحد، بعدم حل المشاكل بقالب وطني وحدوي قومي في بلد يعتبر المؤثر القبلي فيه اقوي من سياسات الدولة المتبعة ! أصبحنا في كل يوم نسمع عن جبهة قتال جديدة وطن على وشك الانهيار حتى هنا في المؤسسات التعليمية اتخذت الحكومة سياسة التشظيئ وحولت الطلبة إلي فرق وكيانات لإضعاف الأحزاب

وإفراغها من محتوياتها وطن يقترف جرائمه البشعة على أبنائه المخلصين !! من يريد أن يفهم ما تفعله هذه الطغمة التي تحكمنا عليه أولا ان يدرس نفسيات جميع الشياطين وأولهم "إبليس" خاصة، لان لولا إغوائه لسيدنا أدم لما هبطنا إلي جحيم الأرض، حيث يقتل الإنسان أخيه الإنسان ويسلب روحه بدون وجه حق ..!

صدح صوت أنثوي عبر مكبر الصوت من احدي منابر الديمقراطيين، كانت تخرج الحروف والكلمات بكسل جميل، كانت تقرأ إشعاراً تحمل نزعة يسارية ان أركانهم السياسية معروفة بالتحضر، فهم الوحيدون الذين يمتازون بلباقة في الحديث ويوظفون الأدب خاصة الشعر في خطابهم السياسي، بجانب نبذهم الفكر القائم على التطرف والإرهاب والعنف كانت تقرأ قصيدة ثورية للشاعر " محجوب شريف " تقول في مطلعها:

يا شعب تسامي ياهذا الهمام

تفج الدنيا ياما وتطلع من زحامها

زي بدر التمام تدي النخلة طولها

والغابات طبولها والأيام فصولها

والبذرة الغمام قدرك عالي قدرك يا سامي المقام

أحاط بالمكان ضجيج هائل ودوي صفيرا حاد ليقتحم هدوء المكان، هكذا في كل دورة انتخابات جديدة يجد الطلبة متنفساً، فيعبرون عن آرائهم ويمارسون حرياتهم ويتخلصوا من روتين الدراسة لفترة قصيرة ليمارسوا السياسة، وفي احدى أيام الصيف، بينما عكف الهدوء ليصنع لحظات توتر في اللحظات الأخيرة من نهاية الانتخابات، أصبحت الحياة داخل حرم الجامعة متوقفة تماماً ومناخها مهيأة لحدوث مشاحنات.. أنها أيام عصيبة تعيشها

إدارة الجامعة، أتي اليوم الذي كان ينتظره الطلبة بفارغ الصبر، انه يوم إعلان نتيجة الانتخابات كان الهدوء يصنع اللبنة الأولي للحظات الشغب القادمة، انفجر الوضع اشتبك الطلبة ببعضهم البعض، اليساريين وتجمع الديمقراطيين، يتهم عناصر من الإسلاميين بالتزوير والتلاعب بنتيجة الانتخابات، احد طلبة اليسار يصرخ من منبرهم : أنهم زوروا الدين والتاريخ، ما الذي يمنعهم من تزوير انتخابات جامعة ؟! والإسلاميون من منبرهم يعلنون الجهاد علي الملحدين الكفار الخونة المارقين !! تبادل الطرفين القذف بالحجارة وقنابل " الملتوف " البدائية الحارقة المصنوعة من قبل الطلبة ، ظهرت أشياء غريبة على مجتمع الجامعة ترسانة من الأسلحة مسدسات صغيرة الحجم، خناجر، سيوف، عصى، سيخ، تحول حرم الجامعة إلى ميدان لأشد المعارك وحشية، أصبح الوضع خارج دائرة التحكم .. تطايرت نوافير الدماء في الهواء والإسلاميون يكبرون ويهللون، وصوت صراخ الطالبات يزيد من اشتعال القتال، اشتعلت النيران في مكاتب الإدارة وبعض المعامل الحريق يزداد كأنه يوم من أيام القيامة .. صوت صافرات سيارات الشرطة تحيط بالمكان، أغلقت قوات مكافحة الشغب جميع المداخل المؤدية إلى داخل الجامعة، ليمارس الجنود هواياتهم المفضلة بضرب الطلبة بالعصي وتطبيق تدريبات " التاكندو " عليهم باسم القانون!

يصرخ الضابط المسئول في جموع الطلبة الذين يرشقونهم بالحجارة بغيظ وغضب: إذا لم يحسن ذويكم تأديبكم فنحن سنتكفل بتأديبكم..!

حاصروا الطلبة داخل حرم الجامعة، ثم انطلقت القنابل المسيلة للدموع وصوت الرصاص المنطلق نحو الهواء يثير الفزع بين الطلبة وتعم الفوضى، تدخل الجنود واخذوا يلوحون في وجوه الطلبة بعصيهم المطاطية

الغليظة ويقومون بضربهم بعنف وبدون رحمة بدئوا يتساقطون بإصابات مختلفة لا يسعفهم احد لان كل من تسول له نفسه والاقتراب منهم يصبح واحدا منهم وغير مسموح لعربات الإسعاف بالتواجد في هذا المكان وفي هذا الظرف ، لكن عليها التواجد في مسيرات التأييد والإدانة.....!

وصلت إلي المكان سيارة " تويوتا " نصف نقل، توقفت إمام بوابة الجامعة ترجل منها أشخاص لا يلبسون ملابس قوات نظامية، يضعون خلف ظهورهم مسدسات بارزة ويحملون في أيديهم خراطيم ماء وعصى، دخلوا حرم الجامعة بحذر. إنهم يعرفون كل ركن ومخبأ داخل الجامعة، واخذوا في فض التجمعات بعنف شديد، وكانوا يقصدون أشخاص معينين من الطلبة ثم يسحبونهم إلي خارج الجامعة ويضربونهم ضرب مبرح، ويقذفون بهم إلي داخل صندوق العربة ويضغطون عليهم بإقدامهم بطريقة مهينة وغير إنسانية، تصرخ السيارة على الإسفلت ثم تختفي بسرعة جنونية... من فوهة احدى الأسلحة انطلقت رصاصة نحو طالب إلى صدره، عند موضع القلب سقط وسط بركة من دمائه رفعه زملاءه عالياً نحو السماء، كأنه المسيح لحظة صلبه يتألم ويتأمل السماء، بإجلال ورهبة حتى سكن الموت في جسده بهدوء... اخذ الطلبة يهتفون بشعارات معادية للسلطة ، اتسعت دائرة الشغب حتى وصلت إلي قلب العاصمة والجامعات الأخرى ، كانت رائحة البارود والغاز المسيل للدموع تملأ حرم الجامعة، وفوضى المكان من حريق وحطام، جعلت من منظره في غاية البشاعة وفي اليوم التالي أغلقت السلطات الجامعة، محاولة منها في تهدئة ثورة غضب الطلاب والتحقيق في جريمة قتل الطالب، لم نكن نعلم عنه شيئاً فكل المعلومات التي وصلتنا انه ناشط من اليساريين وتم اغتياله بواسطة إسلاميين متطرفين، استورد مجتمعنا في

الفترة الأخيرة الحلول الدموية من الشعوب البربرية، وعدم الاستماع لصوت العقل، في مجتمع اشتهر بالتسامح في التربية والمعاملات بين إفراد المجتمع، فنحن شعب تحلى بأخلاقيات الأدب الصوفي، والصوفية ارتبطت بحياتنا أرضاً وحضارة وكفاحاً ونضالاً من اجل التحرر من الاستعمار، ومنذ خلقت هذه الأرض تميزنا عن جميع شعوب العالم، على الصبر على المكاره، والزهد في طلب المال، والتوكل والرضا والتواضع، وهي صفات يجتمع حولها جميع السودانيين بجميع،أعراقهم، ومذاهبهم، وأديانهم كروح مميزة لهذه الأمة، وهذه الصفات تقرب من الله في عرف التصوف، وتقترب من الخلق الفاضل وتخلق أساس متين لبناء امة.....

اتصلت إيڤانا وجدتني في حالة من الإرهاق النفسي الغير عادي كانت تريد ان تطمئن علي صحتي، وان تطلع على حقيقة الإحداث بعد غياب الإعلام، عن قصد وأصبحت الشائعات اقرب إلى الحقيقة قلت لها: لم استطيع النوم بعد ما شاهدت ليلة البارحة من العنف الدموي الذي مورس علي الطلاب، ردت وصوتها يحملني إلي مكان هادئ بعيد، إلى بؤرة من الضوء تهبني إحساس جميل مفرح مشحون بالأمان :لا عليك فنحن نشتهر دائماً بالحلول السلبية، فالعنف والاضطهاد يولد الكره ويجعل الفرد دوماً في استعداد للتمرد علي السلطة والمجتمع . .

رديت: ان الطالب لا يريد الكثير من المطالب فقط مناخ ديمقراطي مغلف بشفافية من السلطة والمؤسسة التعليمية، حتى لا يكون هناك غش كيف يزور طالب نتائج انتخابات جامعية ؟ وماذا يحدث إذا خرج هذا الطالب إلي الحياة العملية ؟!

ردت وهي ضاحكة: يزور تاريخ بلد ثم يهمش الآخرين ...

تحدثنا كثيرا شعرت براحة نفسية وأصبحت معنوياتي جيدة، ودعتني إيڤانا على ان نلتقي مساءً في منزلها .. الشمس بشحوبها المحمر توشك علي الغروب، بوادر أجواء شتوية تنذر بقدوم فصل الشتاء، عادة نحبه نحن السودانيين عكس فصل الصيف، الذي يجعلنا في حالة من الضيق النفسي لسخونته وكثرة الإمراض فيه، دخلت المنزل رحبت بي الجدة كستيلا وسعاد، جلست بينهم ووسط ضحكات سعاد وتعليقات الجدة الساخرة شعرت بجو اسري حميم وإحساس رائع .. انه ذلك الشيء الذي افتقده الحياة الأسرية، وأدركت أخيراً ان الوحدة عذاب المحبين وهي ضد الحب، أنها عالم الفلاسفة، والكتاب، والجنرالات المهزومين، والمصابين بالفشل النفسي.. كان لا بد ان اسرد إحداث الجامعة الدموية مرة اخرى، في بلد إذا قال الرئيس نكتة لنائبه سمعها الشعب قبل نائبه ..!! احتجنا أنا وأيڤانا لنوع من التغيير وبرغبة في الخروج إلي المكان الذي شهد عملية خلق هذه العلاقة، عندما شعرنا بارتباكات الحب الأولى واستلام إشارات بداية الدخول، إلى عالم حالم ذات شعور طاغي لذيذ وعند ارتجاف شفتينا وسط رهبة المكان .. وصلنا لمطعم " مدام فود " شهقت إيڤانا أصيبت بمفاجأة تجدد المكان برومانسيته المطلقة ردت: لم أتوقع ان نأتي إلي هنا مرة اخرى ..!

رديت : لماذا ؟!

ردت وهي ضاحكة: المحاربون المهزومين لا يفضلون ان يروا ارض معركتهم مرة اخرى، ونحن هزمنا الحب ..

ضحكت ورديت: إذن إنا أريد ان استسلم لكِ بقية عمري، وان أصبح أسيرك الوحيد أو اقتليني حتى أموت بشرفي الوحيد، حبك ..

ردت: اقسم بحياتي ان أجعلك اسعد إنسان وستتذوق حبي حتى الجنون ..

رديت بعد ان اجتاحني إحساس غامض وفيض من الحب: إنا انتظر ذلك متى متى ؟!

نظرت باتجاهي بعمق وردت: قريبا سوف نكون معاً..

منذ ان حضرت الجدة كستيلا من " جوبا " ونحن نحلم بمثل هذا اليوم، وهذا الوقت الرائع فالحب دائماً ينشد الحرية ويبحث عن المساحات الواسعة في دواخلنا مرت الساعات تأخر الزمن، فالمكان مخادع قاتل برومانسيته سرق نصف عمرنا ولا زال يمارس سرقة ما تبقى من وقت ..!

خرجنا من المطعم واتجهنا إلى منزل إيڤانا، كان المارة تبدوا على وجوههم السعادة ببداية فصل الشتاء، وهناك نشاط واضح في المحلات التجارية، ألان فقط تستطيع المدينة ان تتنفس بعد ان واجهت صيف ساخن لا يطاق، ودعت إيڤانا إمام منزلها، ثم اتجهت نحو منزلي الذي يحاصره الهدوء، لاشيء هنا غير الوحدة كم اشتاق إليكِ هنا لتزيل توتري بدفء حضورك، أريدك ان تقذفي بي نحو جحيم شهوتكِ الملتهب، يا وردة تحمل في عبق شذاها رائحة دعاش المطر الاستوائي .. فجأة رن صوت هاتفي الجوال أنها إيڤانا، قالت ان الجدة كستيلا تريدني غداً صباحاً، حاولت ان اعرف منها لماذا تريدني الجدة ؟ لكني لم أجد منها إجابة على سؤالي فهي أيضا لا تعلم شيئاً، ودعتني وتمنت لي ليلة سعيدة، مع القلق الذي وضعتني فيه الجدة كستيلا لم استطيع النوم، الأرق يجعلني أتقلب علي فراشي كنت أتسال هل رفض أعمام إيڤانا موضوع الزواج ؟ آم ان لها موضوعً أخر!!

أشرقت الشمس بعد ان عشت مع صراع أطول ليلة في حياتي، بسبب التفكير والأرق، شربت فنجان قهوتي الصباحية على صور ومشاهد قناة الجزيرة الإخبارية، نفس الإحداث والمشاهد التي تتكرر يومياً، تفجيرات في العراق قصف صاروخي في فلسطين، حروب أهلية في إفريقيا، الأغرب ان مشكلة إقليم دارفور جعلتنا أشهر من معجون الأسنان في العالم ..! والعرب ينددون من منبر جامعة الدول العربية !! كيف يدرس العرب هذه الحقبة المخجلة من التاريخ للأجيال القادمة...؟! للمرة المليون تنطلي علينا كذبة الغرب، ما الشيء الذي يجعل من شعوبنا ان تحزم رؤوسها منعاً للتفكير..عقال ، كوفية ، دشداش ، طاقية ، عمه، أغلقت التلفاز ثم باب منزلي من خلفي.. كنت أتوقع جميع الاحتمالات وإنا ذاهب إلى الجدة كستيلا، شعرت بان الطريق طويل أول مرة ! فتحت لي إيڤانا باب المنزل، شاحبة الوجه، غائرة العينين قلقة متوترة ، لم تنام مثلي ، كانت تتحدث معي بفتور لم أتعود عليه من قبل، اتجهت حيث تجلس الجدة كستيلا وقلبي يكاد ان يخرج من صدري لحدة خفقانه، ألان أدركت جيدا بان لا شيء في الحياة يعادل لحظة من الخوف، خوف ان يقرر مصير حياتك أشخاص خارج دائرة اهتمامك.. بادرتني بالسلام ثم سألتني عن صحتي...

رديت: بخير وعلى ما يرام

ردت ضاحكة: هيئتك تدل علي انك لم تنام ليلة البارحة، ثم أضافت ألان عليك ان تعرف لماذا استدعيتك .. تحسنت في جلستها واخذ وجهها الطابع الجدي بتقلص عضلاته، واحمرت عيناها ورقرقت ببقايا دموع، وأخذت تتحدث : ان ما تشكله لي إيڤانا هو الكثير في حياتي وأنا الوحيدة التي اشعر بها لقد اجتزنا سويا كل مراحل العمر الخطرة بسلام، وألان هي

مسئولة مسئولية كاملة نحو تصرفاتها فى الحياة، وذلك واضح عندما أقامت معك علاقة حب وتوجتها بجنين في أحشاها، كنت اعلم جيداً أنها هي ألتي اختارت هذا الوضع ، نحن النساء عندما نحب رجلاً يعترينا خوف دائم من أن نفقده في دهاليز الحياة، وعلينا أن تدافع بكل قوانا لنحافظ عليه.. صمتت للحظات وهى تتأمل وجهي بتمعن ثم قالت: أخيراً وافق أعمام إيڤانا على زواجكم بعد شد وجذب، والآن سوف أترك لكما الخيار لتحديد موعد الزواج .. لم أستطيع ان أتمالك نفسي، أخذت الجدة كستيلا بالأحضان، وطبعت على رأسها قبلة، وهى تقف وتنظر إلي فى ذهول من حالة الفرح الهستيري التي انتابتني .. أنا الآن اسعد إنسان على وجه الأرض بهذا الخبر، الذي لم أتوقعه أخبرت إيڤانا كادت ان تطير من الفرح فرح اللقاء، وسريعاً حددنا الأسبوع القادم موعد الزواج ، فلا بد ان اجلس ومعي أيڤانا لنحدد متطلبات الزفاف، يا إلهى لم أصدق نفسي أخيراً سوف تصبحين زوجتي وأمتلكك بشرعية وبورقة رسمية من السلطات ويخرج طفلنا إلى الحياة بهوية أم وأب ووطن يبحث عن هوية ...

قدمنا الدعوات للأهل والأصدقاء، اتصلت بمعتصم وجدته مشغول بالأوضاع السياسية فى البلاد، خاصة مشكلة إقليم دارفور التي أصبحت المادة الأساسية فى كل الصحف حتى أصبحت كل المقالات وكل الصحفيين يكتبون عن دارفور، ونسوا هموم المواطن اليومية، طلبت منه أن يأتي يوم الخميس مساءٍ لحفل زفافي ومعه شادية، حضر المدعون من الاصدقاء والمقربين.. وكان أغلبهم من الأصدقاء امتلأ منزل إيڤانا بجمع غفير، صدحت الموسيقي وسط الزغاريد وأهازيج الفرح اطل العرسان خليل وأيڤانا، مثل نجمين فى سماء صافية، كانا متأبطان زراعيهما بود وحب عظيمان .

يسيران بخطوات بطيئة، كانت إيڤانا جميلة ساطعة بقوامها الممشوق ، وكانت الجدة كستيلا تضحك فى سعادة وهى تراقص، كل من شادية وسعاد ومعتصم، أصبح الجميع فى حالة من الهذيان بسبب نشوة الموسيقى رقص يتسم بالإغراء والإثارة، فتيات يرقصن بموخرتهم بشهوانية، أجساد تتمايل مع الإيقاعات...انه زمن النفط زمن الثراء الفاحش بأبسط طرق الاحتيال .. بعد ان استخرج لنا شركائنا الصينيين النفط وقبل أن نستمتع بعائداته ونوظفها في التنمية والتعليم والصحة، شحنوا لنا عقاقير لتكبير الموخرات وكريمات لتفتيح البشرة ،أصبحت ألان ثقافة لمجتمع يخلق انحطاطه بنفسه، من قال لهؤلاء الصينيين بأننا بعد النفط سنحتاج لموخرات ضخمة، واجساد فاتحة اللون!؟ هذا ماادركوه عن مجتمع يمارس نفاقه بإتقان، ويخبئ معاناته خلف المظاهر الخداعة ... استمر الحفل حتى الزمن القانوني الساعة الحادية عشر مساًء وإذا زادت عن ذلك دقيقة واحدة يتم اعتقال المغنى أو المغنية من قبل شرطة "امن المجتمع " !! لا تعرف السلطات ان الفرح ليس له حدود!

كانت المغنية تغنى اغانى لم اسمع بها من قبل أغاني مبتذلة هابطة، وكانت تعتمد على صوت جهاز " الأرغن " لتغطية أخطائها فى اغلب الأغاني التي لا تحفظها .. شعرت إيڤانا بالإرهاق والتعب نسبة لطول هذا اليوم، استأذنا الجدة كستيلا بعد ان قامت بطقوس مباركة الزواج بالذهاب، لقد كانت فكرة إيڤانا ان لا نقضي شهر العسل في فندق أو في إي مكان أخر، لقد قررت بان نقضيه في ذلك المكان الذي شهد أول قبلة جمعتنا بهذا الحب، كان معتصم يقود السيارة نحو منزلي وهو في حالة من السكر الشديد، يسب ويلعن أشخاص بألفاظ بذيئة لم اعرفهم من قبل، لم نصدق بأنه أوصلنا بسلام، كان يقود بسرعة جامحة كأنه يذكرنا بليلة جامحة، دخلنا إلي المنزل

كأننا ندخله أول مرة، وذلك بسبب تغيير الأثاث والديكور قضينا أجمل شهر بسبب الحب وأفعاله.. كانت إيڤانا تتوهج يوماً بعد يوم وإنا احترق شوقاً لها، ويزداد حبي لوجهها في كل صباح، كنت استيقظ فجراً أجدها تقف إمام لوحات "سيزان" وهي في حالة من التأمل والهدوء العميق، كانت تمارس هذا العمل يومياً، كنت أتساءل لماذا "سيزان" ؟! ربما لأنه يرسم عوالم ما وراء غيبيات العقول الإنسانية.. تأمل لوحاته يجعل البصر في حالة من التحليق المستمر نحو الفضاء ..

اقتربت مواعيد ولادة الجنين كانت تواظب بالذهاب إلى الكنيسة للصلاة وممارسة المشي، في فناءها المزروع بالأشجار الظليلة والورود والأزهار، وفي اغلب الأحيان ترافقنا الجدة كستيلا، لم أكن من الذين يشعرون بفوارق في الدين في إسلاميتي ومسيحيتهم، لقد كان الرابط الوحيد الذي يجمعنا وبقوة هو الحب وفي كل مرة نأتي إلي الكنيسة كنت أقول لأيڤانا، وهي تهم بالدخول إلي الكاتدرائية بان تصلي من اجل أن يبقي حبنا قوياً وأبدياً .. وبينما كنت مستغرقا في نوم عميق في احدى الصباحيات رن هاتفي الجوال بصورة مزعجة، كانت المتحدثة شادية كانت تبكي بحرقة وألم، أخذت وقت طويل في تهدئتها قالت: لقد كتب معتصم مقال قبل عدة أيام أغلقت بسببه الصحيفة، وتم اعتقاله ولم يأتي حتى الآن، وأنا في حالة قلق عليه حتى تلفونه مغلق، طلبت منها أن تأتي إلى منزلي بأسرع وقت ممكن، لنذهب إلى الصحيفة لكي نعرف مزيداً من المعلومات عنه..

كانت إيڤانا في المطبخ تصنع لي فنجان قهوتي الصباحية، أطلعتها علي موضوع اختفاء معتصم ردت: لقد تعرفت علي معتصم منذ زمن بعيد عملنا زملاء في احدى الصحف، وكنت أتوقع في أي وقت أن يخلق مشكلة

مع السلطة، بسبب المواضيع التي يتطرق إليها، المحرمة سياسياً من قبل الحكومة، ثم لديه ألفاظ نارية مثل سهام مسمومة يصوبها نحو الفساد، كنت ادرك جيداً في أنهم لن يتركوه يهدد مصالحهم .. أخذت ارتشف قهوتي وأفكر في حديث إيڤانا وما سيحدث لمعتصم من شتم وإذلال وضرب على يد رجال الأمن .. رن جرس الباب نهضت وفتحته سقطت شادية في حضني، وأخذت تبكي بهستيريا لم استطيع إسكاتها سحبتها إلي الداخل وتركتها مع إيڤانا لتهدئتها، دخلت الغرفة لاستبدل ملابسي .. أين أنت يا معتصم لا يمكن ان تتركنا هكذا...؟ أنت دائماً تصنع للآخرين جحيمهم وتتركهم في قلق وتوتر مثل شخص يتنزه في حقل ألغام حتماً يوماً ما سوف يروقك لغم، تحركنا انا وشادية نحو الصحيفة، التي يعمل بها لم نجد احد لديه معلومات مفيدة حتى رئيس التحرير ليس لديه معلومات عن احد موظفيه...! الشيء الوحيد الذي وجدناه ومن الممكن أن يفيدنا، تحدث موظف الاستقبال عن حضور ثلاثة أشخاص في سيارة مظللة من نوع " تويوتا كريسيدا " طلبوا منهم مقابلة معتصم وعندما حضر إلي مقابلتهم، اخرجوا له هوياتهم وطلبوا منه الذهاب معهم في هدوء ثم انطلقوا في عربة، لا تحمل أي لوحات تحدد إلى أي جهة يتبع هؤلاء، لقد كتب معتصم قبل عدة أسابيع مقال، تم مصادرة الصحيفة بسببه وهي تحت الطبع وتم استدعاء رئيس التحرير، وهدد بأنه إذا تكرر هذا الحدث مرة أخرى سوف يغلقون الصحيفة، ويتم تحويلهم إلى المحاكم الخاصة بالجرائم الموجهة ضد الدولة !!

كتب معتصم مقال آخر هاجم فيه سياسة الحكومة التي أدخلت قوات أجنبية لإقليم دارفور ومنظمات، لا يعرف احد حقيقة عملها أدي ذلك لإشعال فتنة كبري لن تنطفي في الوقت القريب، انه الاستعمار يملي أجندته قسراً

علينا، ولا احد يكترث وطن بائس يحتضر بسبب أخطاء أبنائه، الذين يريدون أن يبيعونه على شوارع وأرصفة ومزادات أمريكا و اوروبا، حتى يتخلصوا من همومه، بحثنا في كل المكاتب الأمنية، وأقسام الشرطة، والمستشفيات، والمشارح، حتى أماكن بيع الخمور التي يرتادها، ولم نجد له اثر لم نصدق بأنه اختفي بهذه الطريقة التراجيدية الغامضة، كأن الأرض انشقت وابتلعته كنت أتذكر، أخر حديث تم بيننا قال لي :- أحب الظلام ياخليل حيث تتكاثر كل الكائنات بألم الخلق في انتظار طلوع الفجر، كان عندما يهبط الظلام على هذه المدينة تبدأ لحظات حياته الحقيقية، يحاول أن ينسي إلام ومعاناة العمل الصحفي واستهلاك الحديث في أحوال السياسة.. يشرب قهوته السوداء ويدخن التبغ الرخيص، وكؤوس من الخمر تجعله يعيش في خدر ناعم ولذيذ، هكذا يحارب ألامه وكل مايحتاجه في عالمه الخاص، شادية تلك المرأة التي يعتبرها مثل كتاب معتقدات بوذية، امرأة قادمة من عوالم الأساطير، تحمله عبر جسدها، تحلق بهي إلى فضاءات من الهذيان الجميل ... اذكره عندما تحدث لي في لحظة نشوة خمر، قائلاً:- يا خليل أنها الانثى الوحيدة القادرة علي ضخ الحب في جميع الأمكنة البعيدة والحساسة في جسدي، أنها تشبه جميع الأشياء المحببة إلى نفسي أنها امرأة عاشت من اجل حريتها ومبادئها، تنازلت عن كل الثراء الذي يحيط بها، وأحبت كل المدن التي تحمل رائحة الفقر والانحطاط، أدركت مبكراً بان عليها ان تخاصم الثروة، ليبقي عشقها للمدن الداعرة المنحطة عشق ابدي، كان يلج الى جسدها ليعثر على وطن جديد ساحر جميل، بديلٍ لوطن قديم يحتضر تبحث عن وطن لا يسوده فساد ولا يخسر المخلصين من أبنائه.... اتجهنا نحو المنزل بعد أن شعرنا بالإرهاق من البحث ، وجدنا إيڤانا في حالة من القلق بسبب التأخير استفسرت عن نتيجة بحثنا، قلت لها: لا يوجد له اثر في كل الأماكن التي

توقعنا أن نجده فيها .. أمسكت إيڤانا شادية التي كانت في حالة انهيار تام من يدها ثم اتجهت بها نحو احدي الغرف، وتركوني وحيداً جالساً في الصالة منهار من التعب على احدى المقاعد، أدخن سيجارتي بشراهة واشعر بإرهاق ذهني .. خرجت إيڤانا بعد نصف ساعة، بعد أن استغرقت شادية في النوم، كنت اعلم بأنها مرهقة ولم تتذوق النوم لعدة أيام مضت.. تحدثنا انا وأيڤانا حول اختفاء معتصم المفاجئ وقررنا بان نحتفظ بشادية معنا هنا في المنزل، حتى لا تشعر بالوحدة وتتذكر معتصم وتقدم علي عمل شيء في نفسها، رغم أنها لن تنساه بسهولة أنها تحبه بقوة ولم تتصور يوما بأنها سوف تفقده بهذه الطريقة المفجعة، كان كل يوم يمر مفعم بالحزن بالنسبة لنا، إما شادية كانت قوية تمارس الصبر وبعض من الإيمان، كان لديها إحساس تحمله في داخلها بأن معتصم سوف يأتي يوما ما، إحساس جميل جعلنا نتفاءل ونعيش ونحلم بهذا الأمل، كانت شادية نادرا ما تختلط بنا ولا تخرج من الغرفة إلا لتستعير بعضٍ من كتبي، كانت تحب كتب الشعر كثيرا خاصة للشاعر " صلاح عبد الصبور " ربما لأنه يجسد حزنها في إشعاره:

دلف المساء لغرفتي، والحزن يولد في المساء

لأنه حزن عقيم

لأنه حزن طويل كالطريق، من الجحيم إلى الجحيم

وكانت إيڤانا تحاول إخراج شادية من عزلتها وصمتها الرهيب، وبعد فترة من الزمن استطاعت في ان تجعلها، تجلس معنا تناقش وتتحدث وتبتسم مؤقتا فيفاجئها معتصم في دواخلها، فتنهار وتنزوي بعيداً في غرفتها، كانت تتحسن رغم ان تعودنا ان نراها تضحك، وفي لحظة تدخل في نوبة من الحزن، عندما يستبيح معتصم ذاكرتها، أصبحت إيڤانا على وشك ولادة

المولود في إي لحظة غير متوقعة.. لازمت الفراش وتسلمت شادية المهام المنزلية، وكانت الجدة كستيلا وسعاد تحضران للمنزل وتتسامران مع إيڤانا، من الفترة الصباحية حتى الفترة المسائية .. اعشق المناخات الأسرية التي تمتاز بدفئها .. كنا من وقت لأخر ان نخرج من ايقاع الحياة الواحد برتابته اليومية، نبحث في نواصي الحياة عن بعضاً من الألق والدهشة لتزيد في دواخلنا مساحة الفرح، ونذهب انا وايفانا وشادية الى المركز الثقافي الفرنسي والبريطاني ومعهد جوته الالماني، لنواكب الحراك الفني والثقافي في البلاد، كنا نجد حريتنا المتواضعة في هذه الاماكن ابتدأ بالنقاشات الادبية وأنتهاً بالمعارض التشكيلية، وبقية الاجناس التعبيرية الاخرى، لدينا جيل مبدع ولج الى الفن التشكيلي عبر الحداثة بطموح كبير، وكانت ايفان عبر الاستغراق والتأمل تكتشف في اعمالهم مناطق الدهشة، كان هؤلاء الفنانين بإرثهم الحضاري لديهم خبراتهم بمفاهيم اللون وحرفيتهم العالية في التعامل مع تقنيات اللوحة، اما ايفانا كانت تتعامل مع بعض اللوحات كأنها موقد تحرق في اتونه كل انفعالاتها، كانت تقرءا خطوط ومسامات الفرشاة بحساسية عالية من التأمل والتنسك الروحي، فتخرج بغموض وإبهام اللوحة بسر الحياة الصغير ومغامرة الـلا يقين، كانت لوحات هؤلاء المبدعين متموجة ومتدفقة بعفوية وأكثر ايغالاً في الغرابة والإثارة، تخلق حالة من التناغم الكثيف بين الاحجام والفراغ واللون والرؤية الضوئية التي تحرك وجدان المشاهد من زخم الجماليات، فنستجيب لها وننفعل معها. كنا نقطف ثمار الفرح والبهجة من حديقة الألوان هذه اللوحات التي تحكمت بطموحها واستعمرت المشهد التشكيلي، كنا نتجول بين الالوان البنفسجي لون الرغبة والإثارة، والأصفر القمحي مشدوهاً بسؤال الوجود، والأبيض المنطفئ يحتفي ببعده الترميزي، والأزرق والبرتقالي وحدهما لإزالة الارق والإقبال

نحو الحياة، فقط كنا نراقب حركة الالوان مثلما صرح الفنان (ريجيس دوبريه) :- الرسام بصفة عامة لا يقول شيئاً، انه يصمت ... كان هؤلاء الفنانين الشباب لهم لمسات تشكيلية تظهر عبر المساحات اللونية الشفافة الخارجة عن سطح اللوحة ... لم نجد مساحة لحريتنا التعبيرية في هذا الوطن الكبير، لكن وجدنها في هذه المبانى التى تقف شامخة وتحترم الابداع وعقل المبدع وتؤمن بحرية ارائهم انها المراكز الثقافية . مثلما قال الكاتب الفرنسي (جان جنيه) :- لن نصير فنانين اذا لم نخالط الماً عظيماً ..

اهتمت شادية بأرشفة وحفظ أشعار إيڤانا، وأصبحنا نسهر نحن الثلاثة في مناقشة المواضيع الأدبية والسياسية، والتوتر الذي تعيشه البلاد وفي احدي المرات وبينما حضرت إلى المنزل عائداً من العمل، وجدتها تتصفح رواية " قلب الظلام " للكاتب البولوني الأصل والبريطاني الجنسية " جوزيف كونراد "، رواية جيدة تعتبر عمل فني متقن بها مهارات سردية وموضوعية عالية، تتحدث عن الوجه الآخر للاستعمار الوجه البشع للمستعمر، وممارساته خاصة ضد أبناء القارة الإفريقية ومعاملتهم لهم بعنصرية ودونية واضطهاد، قلت لها: ربما يوما سوف أجدك تنافسينني في مجال النقد، ضاحكة ردت : من المؤكد لن يحدث ذلك، أنت صاحب خبرة في مجال النقد ولك كتب في هذا المجال أما أنا اقرأ الرواية لأنها كتاب الحياة الفلسفي..

رديت: هذه المرة الأولي التي أراكِ فيها تهتمِي بالأدب..

ردت: إن الأدب حبى واهتمامي الأول لكن معتصم كان يحاول أن يجذبني نحو السياسة مع حبه..

رديت ضاحكاً: إذن معي هنا سوف تنقذى حبك الأول الأدب.. تغيرت ملامحها وظهرت عليه علامات تؤتر واضح ردت: لا لا أريد حبي الثاني، أنت تعلم كم هو رائع وجميل..

رديت بسرعة حتى لا تدخل في حالة من التشاؤم: اعلم ذلك جيداً..

تحدثنا حتى منتصف الليل، وبعد ذلك استأذنتها بالانصراف إلى غرفتي بعد ان شعرت بالنعاس والإرهاق، لقد كانت شادية تعاني من الأرق منذ اختفاء معتصم، تسهر حتى الساعات الأولي من الفجر في القراءة.. بالقراءة وحدها نخلق عالم نظيف ينسينا ألآمنا وظلم الحياة لنا .. دخلت الغرفة وجدت إيڤانا تغط في نوم عميق وصوت إيقاع أنفاسها يأتي إلي إذني في هدوء، أخذت أتأملها كانت تزداد جمالا بملامحها وسمرتها التي تشع ومضات خفية، تجعلني أسهب في النظر على وجهها باهتمام، كأنني أراها أول مرة يا الهي أنها تزداد الق ، وبعد معاناة ومرور الكثير من الوقت في محاولة لاستدراج النوم إلي فراشي، دخلت في نوم عميق ، وبدا يراودني حلماً غريباً . أمرآة ليس لديها ملامح شامخة طويلة، تمتد إلي أعلى نحو السماء تقف إمام شاطئ البحر، تمسك بيديها اليمنى واليسرى باثنين من طائر النورس البحري، ثم تهب عاصفة قوية، ويثور البحر وتضرب الامواج الشاطئ بقوة وعنف، فتطير النورس التي في يدها اليمني .. استيقظت وأنا في حالة من الرعب علي صوت صراخ إيڤانا، يا الهي لقد داهمتها الآم الطلق .. دخلت شادية إلى الغرفة وهي في حالة من الارتباك والخوف الشديدان، حملناها إلى السيارة وأسرعنا بها نحو المستشفي، كانت تصرخ بأعلى صوتها من شدة الم الطلق، أدخلت فور وصولنا إلي غرفة العمليات رقم (٢) كانت تمسك بيدي في قبضتها بقوة، تخلصت من يدها بعد جهد كبير وهي على أعتاب

غرفـة العمليـات، الوقـت يمـر بـبطء وبـصورة مقلقـة ورتيبـة، حـضرت الجـدة كستيلا وسعاد بعد ان اتصلت بهم شادية، كان الحزن والخوف والذهول يملأ عينيهما وكان الثلاثة يذرفن الدموع ويصنعن لي توتر عميق، الدقائق تمر رتيبة كأنها تشير بوجود صراع طويل بين الحياة والقدر، وبعد ثلاثة ساعات من شد الأعصاب الذي يحاصرنا ووسط صلاة الجدة ودعوات سعاد وشادية..

خـرج الطبيب ومعه فريق تمريضه، يتصبب منهما العرق بغزارة ويبدو الإرهاق في عيونهم سألني هل أنت زوجها ؟!

رديت: نعم

وبدأ الحديث: الحمد لله إننا استطعنا إنقاذ حياة الطفلة، لقد انتابت زوجتك نوبة قلبية إثناء الوضوع وحاولنا ان ننقذها لكنها لم تصمد ....

لم اسمع من حديثه شيئاً، فقط كان يربت على كتفي ويفتح فمه ويغلقه دون ان يخرج منه صوت، أحاطني ظلامٍ كثيف لم اعد أرى الأشياء حولى .. لماذا الآن يجتاحك الموت ؟ فى هذه اللحظة التي كنت انتظرها بفارغ الصبر،الآن فقط كل أشيائنا الجميلة المحاطة برونق السعادة تصبح بشعة وأكثر بؤسا في حضرة الحزن.. صوت سعاد وشادية يثير ضجة عالية في المستشفي، كانتا تصرخان بألم وهستريا.. ماتت إيڤانا .. صوتهما يأتي صدي عميقٍ في دواخلي، لم استطيع ان استوعب خبر رحيلها كنت ابحث عن شيء يوقف انهمار دموعي .. أريد ان اتشظي ان انفجر ان أتلاشى في الهواء، يسقط العرق من جسدي بغزارة اشعر بهبوط حاد في جسدي صفير حاد ومؤلم في إذني .. دخلت غرفة العمليات كانت الجدة كستيلا في حالة من الانهيار، جالسة على الارض في غرفة العملية، تبكي بانين خافت، وهي تحمل طفلتنا التي حملت ملامح إيڤانا، كانت الطفلة تلوح بيديها نحو السماء

وتصرخ بهستريا، كأنها تخاطب روح أمها الهائمة في السماء، كانت إيڤانا على الفراش جسدا مسجي بدون روح، شاحبة الوجه تبتسم ابتسامة غامضة فيها شيء من الألم، طبعت على جبينها قبلة كان جسدها بارداً، لماذا لم تودعيني و تقولي لي أحبك قبل هذه الغفوة الطويلة...؟ لقد شعر بنفس تلك ألآلام التي اجتاحت الشاعر الاسباني " ميجال إيرناديث " صديق الشاعر " لوركا" عندما كان يقبع فى سجون الديكتاتور" فرانكو" يتضور جوعاً، وتأكل الرطوبة جسده فى زنزانته ، يكتب الأمه فى إحدى أشهر قصائده " تهويده البصل " عن عاطفة جياشة فى حب زوجته، ورحيل طفله عن الحياة يجيب فيها عن رسالة بعثت بها إليه زوجته حيث تطلعه ، أنها باتت من شدة عوزها تقتات الخبز والبصل فتخيل، فى القصيدة أبنه يرضع دم البصل من ثدي أمه الأم تحاكي بعضها بجروحها الثلاثة الحب الحياة الموت..

أقامت الجدة كستيلا مراسم الدفن حسب معتقدها الديني.. وبينما كان القس يقرأ الصلاة علي روحها امتلأت السماء بالغيوم والسحب، حجبت ضوء الشمس وظهرت فراشات بلون النار، والرياح بعثرت على الأرض إزهاراً برتقالية، لماذا ينقلب الحب والسعادة، في لحظة زمن خاطفة إلى حزن عميق، أما انه القدر عندما يتربص بنا عند نواصي الحياة، كيف ترحلين من الحياة وتتركين طفلتنا وحيدة مثل نورسه تبحث عن سربها، لمن تتركينا وسط هذه الوحشة والصمت الطويل...؟؟ الآن فقط أريد ان أقيم لحزني رواقٍ أشعل فيه شموع سعادتي التي مضت لأضيئ الليالي المظلمة من حياتي القادمة أريد ان أتطهر بقداسة النار .. ماتت إيڤانا بدون رغبتها واختيارها داهمتها نوبة قلبية، إثناء الولادة أعطتني الحب من قلبها والحزن أيضاً، لقد أهدت لي من جسدها جسد أخر كان يستعمرها يتمدد داخلها بنشوة الخلق..

أنتِ ألان تسكنين عالم الأموات المغلف بالصمت لا شيء غير الحزن، غير انتظارك قادمة كالحلم بوجهك بذات الابتسامة البريئة تلك الابتسامة التي كانت في القلب شيئاً أخر اكبر من حزن كنتِ تدركين انه قادم ....

أصيب خليل بتشويش عقلي أصبح يعيش في وحدة تامة انه يحتاج إلى إيمان إلى قوة أعظم من طاقته حتى تقوده نحو الحياة، لا يعرف إلى أين يتجه في هذه الحياة، أصبح مثل شخص يهيم في صحراء ويحمل في يده بوصلة معطوبة، روحه تتوق إلى المجهول يقفز عبر الأشياء ، شوارع، وملامح بشر ، وأصوات لم يسمع بها من قبل، ليس إمامه سوي اليأس، والبؤس، والوحدة، والفراغ ، كان يصنع من يأسه كارثة، ومن انسحاقه انفجاراً، كان يهرب إلي بضعة كؤوس من الخمر، لتنسيه إيقانا للحظات وتخرجه من صدمة الفقدان وحالة الفتور والموت الجسدي التي يشعر بهما ، أصبح مشرد من واقع الحياة ، عاجز عن العيش مع الآخرين، يهيم وحيداً في الطرقات والأزقة المظلمة، يخاف الأضواء لأنها تفضح واقعه، استطال شعره وطالت أظافره ملابسه متسخة شكله أصبح مرعب، ذهبت وسامته وجاذبيته من غير رجعة، فقد الكثير من وزنه، يرفض الطعام وكل شيء يجعله يتعلق بالحياة، تعبت الجدة كستيلا من الحديث معه حول صحته وأخيراً وبعد ان أصابها اليأس، حملت الطفلة وذهبت بها إلى " جوبا " وصديقه الوحيد معتصم في معتقل السلطة يمارس الصبر والصمود، لكن إلى متى؟ فحكومات العالم الثالث، هنا لا تقدم ضمانات على ان يعيش المعارض لأنظمتها حياة مرفهة داخل السجون والمعتقلات، غالباً ما يموت المعتقل بالتعذيب أو الإمراض المزمنة، أو يخرج إلي الحياة مدمرٍ نفسياً، لازال لشادية بعضٍ من الأمل بحضوره وكانت عندما تشتاق إليه تردد دائماً:- يوماً ما سيأتي مع شروق الشمس فمثل هؤلاء الرجال لا تغيب شمسهم أبداً.. كانت تبحث عنه

فى كل مكـان حتـى، أصبحت تستغل علاقاتها المشبوهة بأصحاب المناصب العليا لتعرف مكانه.. انه الحب ونبض الأخر في دواخلنا، انه يجعلنا نتصرف بتلقائية بدون ان نستطيع التحكم في أنفسنا بدون ان نفكر كيف ومتى وأين نجد من نشعر بحبهم في دواخلنا..؟ أصبح منزل خليل مهجور لا يزوره احد، كانت شادية هي الوحيدة التي تزوره من وقت لأخر تنظف له منزله الذي أصبح مهملٍ وقذر وتطبخ له بعض الطعام لكن في كل مرة تجد الطعام كما صنعته، فتدلقه في النفايات وفي كل مرة كانت تسال نفسها أين يطعم نفسه..؟

تقلم له أظافره يتشاجران عندما تحاول ان تشذب له لحيته، كان يقنعها بعدم جدوى ذلك، كان يذهب إلي الجامعة ويجلس في مكتبه وهو في حالة شرود ذهني وينسئ محاضراته، ثم يعود إلى المنزل، تم تحويله إلي طبيب نفسي من قبل إدارة الجامعة اثبت انه مريض نفسياً، وتم فصله أخيرا بتقرير طبي غير لائق طبياً للعمل، لقد خيم الحزن على الجميع زملاؤه و طلابه، وإجلالاً لخدمته للجامعة لفترة طويلة تركوه يأتي وقتما يشاء دون ان يعترضه احد، الأغلبية من الطلبة لم تعامله كمريض نفسي، كان يشعر بقربهم بالأمان ويفضل الجلوس معهم فى اغلب الأوقات .. كان يظهر ثم يختفي لفترة من الزمن ثم يظهر مرة اخرى، لقد اعتادوا عليه واصبح معلم من معالم الجامعة البارزة .....

أحيانا كانا يجلسان هو وشادية، في منزله يتسامران ويشربان خمرهما حتى الثمالة، يحاولان ان يبتعدا عن ماساتهم ويخفضا الآم جروحهم، وكانت شادية تتحدث عن معتصم بحب عظيم، انه بطلها الذي لا يهزم يقول كلمة الحق حتى لو كلفته روحه، انه صديق الجوعي والمرضى والمظلومين والمهمشين، انه يصنع لهم من دمه ترياق من سموم السلطة

وفسادها، انه مثل " تشي جيفار " سقط من رحم المعاناة، لا ينام إلا مهموماً بالحرية والعدالة .. إما خليل كانت إيڤانا هاجسه علمته، كيف عندما يحب الرجل أمرآة بصدق لا يري غيرها إمامه، ولا يستطيع ان ينزع هذا الحب من قلبه، أنها مثل تلك الفتاة التي كتبها الشاعر الفرنسي " ارثور رامبو " في قصيدته " اوفيليا "، فتاة ذات طبيعة شاعرية خيالية، تموت بسبب رؤاها الكبيرة وحنينها إلى الحرية وشوقها للحب .. كان لكل منهم بطل صنع معجزة الحب لقرينه... كانا يتسامران في احدى الأمسيات يعيدان ذكريات الماضى الجميل من خلف الكؤوس، لم يستوعب عقل خليل موضوع موت إيڤانا انه يبحث عنها في كل مكان، حتى أصبح لا يتذكر طفلته التي فضل ان يتنازل عنها بكل سهولة للجدة كستيلا، التي حملتها معها إلى جوبا، أنها أصبحت حانقة علي العاصمة التي جعلتها تفقد اقرب واعز اثنين إلى قلبها، والدة إيڤانا درست المرحلة الجامعية في العاصمة حتى عرفت طريق الهجرة بدون رجعة، وبموت إيڤانا ازدادت تشاؤماً وكرهاً لهذه المدينة، أنها امرأة عظيمة قادرة على تربية جيل أخر أنها رمزٍ للصمود والقوة .. شرب خليل وشادية إلي درجة الثمالة، وكان صوت المذياع يبث أغنية عاطفية تمتلئ بالشجن، كلمات تعبر إلى داخل صميم الفؤاد بإحساس شفيق تقول:

هلا رحمت متيمنا عصفت به الأشواق وهنا
وهفت به الذكري فطاف مع الدجى مغني فمغني
دنيا أنتِ وفرحتي ومني الفؤاد إذا تمني
أنتِ السماء بدأت لنا واستعصمت بالبعد عنا

فجأة تداعت لهم كل الذكريات الجميلة، الحب بمشاغباته وجلساته التي تمتاز بالدفء وضحكاته الجميلة، التي احاطتهم بنوع من الانتشاء

العميق، وبحميمية أناس يصنعون شعور جميل من الخشوع والرهبة الكبيرة، أجهشا ببكاء طويل اشعل حرائق هائلة في دواخلهم، لقد شربا بعض الكؤوس لينسي ألآمهم، لكنها أججت عواطفهم وفضحت دواخلهم، وصورت لهم حقيقة حزنهم الماثل إمامهم وفتحت لهم أبواب كانت على الأقل مواربة .. هكذا الموت يأتي إلى من نريد لهم البقاء ونتمسك بحبهم، أنها أنانيه الموت وفلسفته التي فاقت كل المذاهب الفلسفية، هكذا ترحلين وتتركيني انا الذي، بدأت اخطط مشاريع سعادتي معك .. فأنتِ المرأة الوحيدة التي ولجت إلى ثنايا روحي .. واستعمرت الجانب الشهي من ذاكرتي ومزجت جيناتي بجيناتها .. لماذا رحلتي بدون ان تعطيني قبلة وداع ...؟ وتركتي لي طفلة شاهدة علي وجودك داخلي، تحمل نفس ملامحك كلما نظرت إليها تجعلني انهار وأتمزق من الالم، إمام بخل هذه الحياة التي أعطتني جسداً متوج بروح من جسد أخر فارق الحياة .. انه دورا الحياة الذي أصبح مربكاً وفوضوياً إلى حد الرعب..!! يا ربي أعطيني بعضاً من الصبر. أنها لم تكن إنسانة عادية ، كانت من أولئك النادر وجودهم فى الحياة، يكافحون فى الحياة ويضغطون على ألأمهم ليسعدوا الآخرين.. كانت دائماً فى حالة من السعادة، كانت تحاول ان تخبرنا ان الحياة فانية ونستحق ان نعيشها بحب، ولو على حساب أوجاعنا وألأمنا........

خمسة أعوام مضت على رحيل إيڤانا ولم يستطع خليل ان ينسي ملامحها في كل لحظة تمر بهي، أصيب بالهزال الشديد تآكلت ذاكرته حتى أصبحت في مرحلة التلاشي، لم يعد هناك شيئاً يحرك إحساسه أو يثيره، كانت تتجه نظراته نحو الأشخاص الذين من حوله بغباء وعدم اهتمام كأنهم دمى، حتى شاديه أصبح لا يشعر بوجودها بقربه، لقد حاولت كثيراً ان تسترد

حتى ولو جزء من ذاكرته استنفدت كل قواها ولم تحرز أي تقدم .. وفي ليلة من ليالي الخريف، بينما كان المطر يسقط بغزارة وظلامٍ دامس يحيط بمنزله، بسبب انقطاع التيار الكهربائي، تكور خليل في احدي الأركان وجسده يرتجف خوفاً من صوت الرعد ، أنه صوت مرعب يهتز له جسده من الداخل، يزرع الخوف في قلبه، جحظت عينيه ودخل في حالة من الفوضى العارمة، كان يحطم كل ما يصادفه في طريقه الأواني الأثاث، يقذف بها في كل اتجاه، حضرت شادية في ذلك اليوم صدفة، وجدت كل شيء محطم وتنزف الدماء من يديه من جراء تهشيم الزجاج بهما، وهو في حالة من الغضب، فجأة عندما رآها إمامه ارتمي في حضنها واخذ يبكي بهستيريا صوته الغى صمت المكان، انتابته هذه الحالة أكثر من مرة وتكررت إحداث العنف التي يمارسها مع الأواني المنزلية، أصبح مثل قنبلة موقوتة يشكل خطراً على الآخرين وعلى نفسه.. وفي لحظة يأس قادته شادية إلى مستشفي الإمراض النفسية وهي تأمل في ان يتماثل للشفاء، وتم وضعه مقيماً في احدى العنابر كان معه خليط من المرضى، اغلبهم مصاب بمرض انفصام الشخصية، وبعض منهم فقد عقله في سجون السلطة، وأصيبوا بحالة مرضية خاصة يطلق عليها الأطباء "إعراض ستوكهولم" أصيب بها العديد من ضحايا المعسكرات النازية، الذين وتعرضوا إلى أبشع أنواع التعذيب والتنكيل البدني والنفسي.... منهم من تعاطف مع جلاديه وآخرون، لم يستطيعوا مواصلة حياتهم وإشباع رغباتهم إلا تحت وطأة جرعات الإذلال والألم، وعندما يشعر هؤلاء المرضى، في هذا العنبر بهذه الحالة يضربون رؤوسهم بالحائط، والأبواب الحديدية، والشبابيك، وقوائم السراير الحديدية، وأواني الطعام الفارغة، فيعلن الممرضين حالة الطوارئ بأقصى سرعة ممكنة، تفوح من العنبر رائحة دم مقززة، أنهم يتلذذون بالألم !! وهناك جزء من المرضى يأتون إلى

المستشفي، ليقضوا فترة نقاهة قصيرة فتستخرج لهم التقارير الطبية والوصفات، وعندما يخرجوا يشترون من الصيدليات الحبوب المخدرة، ويبيعونها بأسعار غالية وسط الشباب في الحواري والأزقة، أنها ثقافة جديدة يحتكرها جيل كامل من الشباب، والحكومة لا تتوقع إي خطر قادم ما دام أنهم يتعاطون جرعات من السعادة الوهمية ولا يمارسون السياسة ..!

عنبر المرضى يمتاز بالفوضى والقذارة، فهناك مرض لا يتناولون طعامهم إلا بعد ان يغمسون فيه إقدامهم، أنها طقوس ثابتة تمارس مع كل وجبة وآخرون مصابون بالتبول الغير إرادي، والأغرب ان اغلبهم من أصحاب الدرجات العلمية وأبناء أثرياء، إما الجزء الأخر فقد عقله بسبب الظروف الاقتصادية والمشاكل السياسية، وهؤلاء مرهفون منطوون على أنفسهم يعيشون في عزلة تامة، أنهم فلاسفة هذا المكان يستهلكون كل أنواع الكيف ويمارسون التأمل .. التناقض الوحيد الذي كان وسطهم هي " عفراء " ممرضة في الثلاثين ربيعاً من عمرها المهدر في هذا الجانب الكئيب من هذا العالم الذي يحتفي بتناقضاته، لها جاذبية هادئة، انفها دقيق عمودي، وشفتاها ممتلئتان إثارة، وعينيها بهما فتور اللحظات الأخيرة من الشعور باللذة، أنها ملاك وسط جمهرة من الشياطين .. منذ ان تم إحضار خليل للعنبر وهي تشعر بانجذاب نحوه، بدأت تهتم بهي تغير له فراشه وتحلق له لحيته باستمرار، وتغسل له أواني الطعام وعند استلام ورديتها تحضر له معها السجائر، وبعض إغراضه البسيطة .. أصبح خليل يقترب منها أكثر فأكثر حتى، أصبحت جزء من وجوده وسط هذا التداعي الغير إنساني ، كان يستيقظ في الصباح على ابتسامتها الجميلة، مثل نسمة محملة بدعاش بارد تصطدم بملامح وجهه، وعندما تستلم وردية المساء وينام الجميع بفعل الجرعات المسائية القوية، تجلس بالقرب منه تسامره، لقد كان لديها

إحساس بأنه يشعر بها ويستوعب ما تقوله، كانت تحكي له حكايات مليئة بالأساطير وأحيانا تقرأ له بعضٍ من الشعر وتغني له، صوتها يدخل في أعماقه إلي مكان غامض، يجعله في صراع بين والواقع الماثل امامه، وعقله الذي لا يستوعب الحياة، وجموح عقله الذي يريد ان ينطلق من صومعته نحو ذكرى إيقانا .. بالقرب من سريره جاره " علي " شاب في الأربعين من العمر، درس الفلسفة بإحدى دول شرق أوربا، عندما يأتي والديه لزيارته يحملون له كل الأشياء التي يحبها، قارئ نهم ومثقف عميق، لديه بالقرب من فراشه منضدة تكتظ بالمجلدات والكتب، ابن رشد، ابن خلدون، سارتر، كانت، أركون، لماخ، الثقافة الامبريالية لادوارد سعيد، وأيضاً كتب الشعر والنقد و السيرة الذاتية لموزارت .. لا يتحدث مع احد وفى مرات نادرة عندما يتحدث، كان صوته مثل همس هادئ يهتم كثيرا بأناقته، حتى وهو مسترخي علي فراشه، كان لديه هاجس دائماً يلاحقه، بأنه قذر يغتسل في اليوم أكثر من عشرة مرات، ويحب العطور الباريسية الغالية الثمن، يتأزم نفسياً عندما ينذر الجو بغبار وأتربة، لا يحب الفترات الصباحية، كان يفضل الفترات المسائية بعد ان يأخذ المرضى المزعجين جرعاتهم المنومة، وغالباً ما يبدأ سهرته بكتاب وينهض من فراشه في فترات زمنية متقطعة ليلاٍ ويذهب، إلى خليل في فراشه فيعطيه سيجارة من نوع " روثمان " ويستمر الليل كله في السير بين فراشه وفراش خليل، وعندما يكون هادئ نوعاً ما يقل عدد السجائر إلى خمسه أو ستة سيجارات، وعندما يكون متوتر تزيد عن العشرة سيجارات ..

في احدى المرات غابت عفراء عن العمل لأمر ضروري، حضرت الممرضة البديل لها للإشراف علي خليل، ارتفع توتره إلى اعلى درجاته، انه يشعر بشيء في داخله يريد ان يلفظه إلي الخارج، يريد ان يسال عن عفراء لكنه لا يستطيع يديه ترتجف بشدة يتصبب عرقٍ غزيراً من جسده، امتلكته

حالـة مـن الـذعر يـشعر بفوضى فـي جسده جحظت عينيـه، كـان جسده يقفز بعنف مـن الفراش، أسرع ممرضـان كانـا فـي العنبر يمتلكـان عضلات قويـه ضغطا عليه في فراشه، ثم أخرجت الممرضـة حبـة "إل أس دي" مـن جيبهـا وألقت بها في فمه، وبعد عده ثواني اخذ جسده الثائر في الهدوء اخذ يخرج مادة بيضاء من فمه مثل زبد البحر، نظفتـه الممرضـة وبعدها دخل فـي نـوم عميـــق .... راوده حلــم مكـــان ملـــئ بالأشـــجار وطيـــور ضـــخمة وأفيـــال وديناصورات تحلق في السماء وأيقانا جالسة على قمـة رابيـة عاليـة، يـصعد نحوهـا مهرولاً إلـى أعلـى كلمـا اقترب منهـا تـدحرج أسفل الرابيـة يحـاول ثـم يسقط .. يحاول ثم يسقط ، وهي تضحك .. فجأة توقف الزمن انـه حلـم غريب لـم يـستطع ان يـستوعبه استيقظ فجـأة، وجـد " عفـراء " جالـسة فـي كرسـي مواجه لفراشه كانت تبتسم له، عقله مشوش ومصاب بخدر لذيـذ بـسبب هـذه الأقراص الصغيرة، التي اكتشفها الكيميائي السويسري: ألبرت هوفمـان عـام ١٩٤٣ تجعل من يتعاطاها يدخل في أحلام وروئ فتنسيه الواقع، وتدخله إلـى مختبر الأحلام ويصبح المريض في حالة من الهدوء النفسي، وتجعله يخضع للأحلام، ويصبح مثل ممثل يخضع بدون إرادته لتمثيل أدواره، كـان خليل فـي حالة موت عقلي في حالة تأمل سكون نحو الأفق، لا يحرك شفتاه انـه يـشعر بحالـة مـن الـذهول.. الجميـع هنـا يـشعرون بغربـة أنـهم يـدورون فـي حلقـات مفرغة يبحثون عن ذوأتهم وعقولهم..

وللجنون قصة طويل فى مسارها المأساوي تقنع بها، بودلبير، اندريـة بريتون، ارتو شوبنهر، شكسبير، نيتشة، جميعهم كانوا العباقرة الذين جعلوا مـن الجنـون نمطـاً وجوديـاً، وشـنوا حـربهم ضـد المجتمـع ومؤسـسات الـدين الزائفة، لآن المجنون يرفض التكيف مع عالم التزييف والظلم، لآن الجنون لا

يصيب الأ المرهفين من البشر... كانت شادية تحضر إلي المستشفي من وقت إلى أخر وفي لحظات خاطفة، تجلس مع خليل لعدة دقائق وتلبي احتياجاته عبر" عفراء " التي أصبح خليل جزء من مسئولياتها، ثم تختفي لعدة أيام لتمارس التشظي علي صدور عشاقها وتحتسى بعض من كؤوس الخمر، في محاولة منها لنسيان حظها العاثر في الحياة الذي لم تعطيها غير الالم، أصبح هدفها ان تعيش سعادة موقتة تستمر لعدة ساعات قالت ذات مرة: هكذا على ان اهزم الحزن أو أموت بحزني ..

وفي احدى الليالي بينما هي تمارس التشظي وتستعين بقليل من اللذة لتفتح لها أبواب من سعادة ونشوة عابرة، اتصل بها مجهول قال انه فاعل خير، أكد بوجود معتصم في مستشفي مدينة "ود مدني الحكومي " وهو في حالة خطيرة، لم تستطيع النوم في تلك الليلة انتظرت شروق الشمس، جالسة كان جسدها شبه مشلول بسبب التفكير، يا الهي هل حقيقة انه موجود على قيد الحياة ؟ آم انه شخص يريد ان يمزح معي بأقرب شخص لقلبي .. أشرقت الشمس بعد معاناة وجهد اتجهت إلى الميناء البري بأسرع ما يمكن قطعت تذكرة في أول بص متجه إلى مدينه " مدني "، اجتاحها خوف ورهبة كانت تسقط دموعها بدون ان تستطيع ان تتحكم فيها .. أيعقل ان يظهر بعد كل هذه السنين التي مرت في تلك المدينة، التي تبعد عن الخرطوم حوالي ١٥٨ كم، لابد ان حدث له شيئاً .... ولماذا تظهر ألان وبعد ان فقدت الجميع واصبح اليأس جزءٍ من حياتي ...؟ كيف احكي لك عن رحيل إيڤانا، واحكي لك ما حدث لصديقك الوحيد خليل ...؟ لا اعرف ان كنتما ستلتقيان مرة اخرى آم لا ..؟ عندما دخل البص" مدينة مدني" شعرت بجفاف حاد في الحلق وارتعاشات وتوتر عام في الجسد .. خطوت نحو المستشفي قسم الحوادث ، قابلت موظف الاستعلامات اعطيته الاسم وتوقعت ان لا يجده بين سجلات

المرضى، رد موظف الاستعلامات: نعم يوجد شخص بهذا الاسم احضره شخصان قبل عده أيام في عنبر رقم (٧) .. بدأ وزني يزداد، أصبحت اترنح عرق غزير يتصبب من جسدي، ولجت نحو العنبر سراير مصطفة، في صف طويل يفصل بين كل مريض واخر ستارة من القماش اللبني اللون، وجوه شاحبة واجساد هزيلة تصور بشاعة المرض، نظراتهم وتأوهاتهم تدل علي أنهم في صراع مع الموت، اغلبهم يتمنى ذلك انه الخلاص الاكبر .. سألت إحدى السسترات عن مكانه.. نظرت إلى نظرة غامضة فيها بعض من الاستغراب، ربما لان هذه المرة الأولى منذ ان احضره مجهولان، ان يسأل عنه احد ردت الممرضة وهي لا زالت في ذهولها: ستجدينه في نهاية الممر أخر سرير علي يمينك ، تزداد خفقات قلبي وتعلو انفاسي اشعر بشيء يجذبني من الخلف بقوة يحاول ان يمنعني من التقدم اقتربت من سريره ازحت الستارة باطراف اصابعي بهدوء وحذر .. مر شعاع ضوئي إمام عيوني مثل البرق كدت اسقط، يا الهي لم أتوقع ان اجده بهذه الحالة أبداً برزت عظامه خارج جسده كأنه هيكل عظمي، ولون بشرته أصبح شاحب شحوب غريب، مغروزة في يديه عدد من ابر المحاليل الطبية.. يئن من الالم أنين خافت يحاول ان يخفف من أوجاعه .. ضمته شادية إلى حضنها وأخذت تبكي بصوت عالي ومؤلم التف حولها عدد من الممرضات العاملات في العنبر، متوقعات موت معتصم فالموت في هذا المكان هو سيد الموقف، وهو الشيء الوحيد الذي يكسر روتين عمل هولا الممرضات، وبعد جهد كبير تم تهدئة شادية من قبل المرافقين للمرضى من هستيريا البكاء التي لازمتها، كانت دموعها تنهمر وهي تتأمل ملامحه تشعر بغصة حزن كبيرة تقف في حلقها تمنعها من الحديث، ومعتصم في فراشه يحملق نحو سقف العنبر، رقرقت عينيه بالدموع وهو ينطق باسم شادية عندما تحسست وجهه

بأناملها، وبعدها لم يستطع الكلام، جلست قربه في اليوم التالي فجراً طلبت إذن بخروجه، وعربة إسعاف من إدارة المستشفي لنقله إلى الخرطوم.. وبعد ساعة من الزمن أكملت إجراءات خروجه وانطلقت ترافقه في عربة الإسعاف إلى الخرطوم كانت تعتبر نفسها هي الرابحة بعد ان صبرت طول هذه السنين وهي تحيط نفسها بأمل ان تجده يوماً ... لقد وجدته أخيراً برغم انه مريض ومحطم كان رهانها مع الحياة بثقة، اول مرة فى حياتها، تشعر بان الحياة منحتها جائزة للصبر... ترافقها في الكابينة الخلفية للإسعاف ممرض الطوارئ.. كانت شادية تتحدث مع معتصم على طول المسافة، بين مدني والخرطوم رغم انه لا يستطيع الحديث فقط يفتح فمه ثم يغلقه بفتور، انه مسجي مثل تمثال نحت من قبل الأف السنين، كانت تتحدث معه وهي تنظر إلى عينيه الغائرتين من اثر المرض: احبك أريدك ان تبقي معي، لا تموت وتتركني للوحدة تعذبني جميعهم ذهبوا لم يبق أحد غيرك .. دموعها تفيض بغزارة لا تستطيع التحكم فيها وبدأت الممرضة المرافقة معها في البكاء أيضاً، فالحزن العميق دائماً حالة مشتركة بين البشر ليس مثل السعادة التي تتسم بالأنانية الفردية كثيراً ما نحتاج إلي أناس يشعرون بحزننا ولا يعرفون شيئاً عن ماضينا وحاضرنا، حتى يصبح حزن محايد نبيل نبل الإنسانية نفسها..

ادخل معتصم " مستشفي الخرطوم قسم الحوادث " أعطاه الأطباء كمية من العقاقير والمحاليل لإنقاذ جسده المتهالك.. يا الهي هكذا أصبحت أعيش حياة مليئة بالمعاناة والإثارة بين رجلين احدهما فقد عقله في لحظة فقده لمحبوبته، والأخر حطمته روحه الثورية من اجل وطن نظيف لا يقترف الأخطاء، ومسميات لا يريد تجار السلطة ان تصبح على ارض الواقع ، ديمقراطية، حرية، حقوق إنسان مسميات جذابة لكنها تحطم كل من يقترب منها. كان من الذين يؤمنون بشدة بمقولة "فولتير" "أن الصحافة آلة

يستحيل كسرها وستعمل على هدم العالم القديم .حتى يتسنى لها ان تنشئ عالماً جديداً ..

كل منهم استمات وضحى من اجل قضيته، وتركوني ابحث عن قضيتي بين فرقعة الكؤوس والتشظئ علي صدور العشاق، وان أنسئ دوماً إني كنت اختار السعادة فأجد الحزن إمامي، لكن لم أتوقع ان يأتي يوماً بمثل هذا الخراب النفسي الكبير .. وبعد أسبوعين من دخول معتصم المستشفي توفي بعدة إمراض، من اثر المعتقل لم تستطيع شادية ان تودعه وداع عاشقة ومحب، قبل خروج روحه من جسده كان في غيبوبة لعدة أيام .. امتلأ قلبها حزناً حتى كاد ان ينفطر ومر في ذاكرتها شريط سينمائي قصير لأكثر الناس أحبتهم وفقدتهم، والدتها، والدها، معتصم وخليل، وأيقنا كانوا جميعاً يضحكون وهي وحيدة قابعة فى ركن حزين بعيد مظلم بارد تفوح منه رائحة رطوبة نتنة، يا الهي لماذا تحمل الحياة للإنسان وجهان السعادة والحزن، الولادة والموت، الرحمة والشر، الخطيئة والعقاب !؟

دفن معتصم بتشييع لا يليق برجل مات من اجل وطن، مثلما كتب المناضل "تشي جيفارا" فى أخر رسالة لوالدته: لا تحزني أمي أن مت فى غض الشباب، غداً سأحرض أهل القبور واصنع ثورة تحت التراب، أن ما يؤلم الإنسان هو ان يموت على يد من يقاتل من أجلهم..... حمله الفقراء، الجوعي، والمظلومين، كانوا يحملونه مثلما يحملون قلوبهم في كفوفهم، الإنسان يستطيع ان يشوه الحياة بالظلم ويجعلها قذرة لا تطاق لكن هناك آخرون بموتهم يصنعون للآخرين حياة جديدة فيها شيء من الأمل، دفن معتصم بعد ان قضي أجمل أيام عمره وزهرة شبابه وهو يعزف سيمفونية الجلاد والضحية، وسط تراجيديا الالم والحب الكبير الذي حمله في داخل قلبه

للآخرين .. اشترت شادية الكثير من الورود وكتب الشعر، اتجهت إلي منزل خليل وكانت في هدوء الليل تضيء الشموع وتملأ كاس لمعتصم واخر لخليل، كأنهم جالسين إمامها وتنثر الورود في فناء المنزل ثم تقرأ الشعر :

قم تأملا......

كل من مات علي جلجلة الأوطان مات

لم تمت هذي العصافير علي التل

ولا مات الحمام

أنت أسلمت إلي التل يديك

فانثني حتى دنا من مقلتيك

ثم غطي وجهك المحروس بالرمل قليلاً كي تنام

كل عام يسقط الثلج على الأرض

ويجري ميازيب القرى دمع الغمام

كل عام تنحني فوق الرخام

وردة تترك جرحاً في الرخام

بالرغم من وجود عدد كبير من المرضي في العنبر تعلقت " عفراء " بخليل انه يجذبها بقوة نحو عالمه، الذي يتسم بالغموض كانت تلقبه " بالمريض الجميل " وعندما يجتاح الهدوء العنبر في الفترة المسائية ويخيم الظلام كان خليل يحرك عيونه بقلق وتوتر يبحث عنها، لتقرأ له قصصها وأساطيرها ويدخن سجائر" الروثمان " الذي يتحفه بها جاره " علي " ويتعاطي عقار" إل أس دي " كان يحلم بروئ أحيانا جميلة وأحيانا بشعة ومقرفة، واغلبها غامضة لا يستطيع فك طلاسمها، وكانت عفراء أحيانا تأخذ

منه قبلة باردة بهدوء وخلسة وهو كان يرمقها ببرود وهدوء عميقين .. كان يقلل درجة توتره بالمشي داخل المستشفي، بدون ان يحدد اتجاه معين أو هدف يقصده، وكثيراً ما كان يقف إمام لافتة بوابة المستشفي التي كتبت باللون الأسود على سطح ابيض، لم تكن تشكل له الكلمات والمعاني شيئاً، مستشفي الإمراض النفسية والعقلية، كان يتمعن فوضئ وميلان الحروف، كان يتأملها كأنها لوحة سريالية .. انه لشيء مثير ان يرى الحروف تقفز وتصرخ في هذيان كان يبتسم لها، ثم يختفي نحو العنابر الأخرى، وهو ينظر إلى السماء كأنه طفل يطارد فقاقيع محلقة إلى اعلى أو يتوقع هبوط شيء ما من السماء .. فكل مريض هنا يعبر عن دواخله بطريقة تختلف عن الأخر، وأحياناً تتوقف على أنواع الجرعات التي يتعاطاها المريض، فهي كثيرة الأنواع وهذه العقاقير تجعلهم يشعرون بهدوء ونشوة، خاصة حبوب " اليوفنتين" و " السايلوسين " و " الهارمولين " بجانب " إل أس دي " وجميعها لها تأثير الهلوسة وتدخل بالمريض إلي عالم مشحون بالخيال الغير محدود، والشعور بلذة وإقبال نحو الحياة بصورة غير عادية، وغالباً ما تجعل المريض في حالة من التماهي إلى درجة التحليق في عوالم غريبة عن الواقع .. فجأة أرتفع صوت ضجيج وضوضاء في المستشفي لقد احضر رجال الشرطة مريضاً عقلياً، يقال انه تهجم علي المواطنين في الشارع وأصابهم إصابات مختلفة، كان في حالة من الغضب والهيجان يريد ان يحطم كل شيء في طريقه لكنه، كان مقيد فى يديه وأرجله بسلاسل حديدية ضخمة انه ينزف من رأسه دماء غزيرة وفى ملابسه. ويخرج أصوات من فمه مثل صوت الإبل وهي تتصارع في معركة طاحنة.... تجمهر المرضي رغم عدم استوعابهم بما يحدث في الواقع، لكنه حدث يثير فضولهم ادخلوه إلى احدي الغرف وأعطوه حقنة تحتوي على عقار من المهدئ ... غلف المكان هدوءاً

نسبياً، سوف يلقون به في زنزانة انفرادية فالمريض النفسي العنيف هنا يعامل معاملة كلب مسعور..! إما من يمتازون بالهدوء أمثال خليل وعلي وآخرون، أنهم فاكهة المكان في هذا العالم المنسي في عمق صخب الحياة بجدرانه الباردة وبرتابته، التي تلغيها في مرات كثيرة الممرضة عفراء بضحكتها العذبة وشفتاها الشهوانيتان، أرسلت لهم ملاك لكي تخفف ألآمهم وعذاباتهم المزمنة، إما شادية لا زالت تقيم علاقاتها الحميمة الساخنة مع كل من تصادفه، لتطفئ شوق بدا ينمو مع جسدها، تذهب إلي منزل خليل كل أسبوع لتقيم لمعتصم وأيڤانا وخليل قداس حزنها تشرب خمرها حتى الثمالة، ثم تغني وترقص وتنفجر بالبكاء بحرقة ومرارة ثم تنام بعمق، وتستيقظ صباحا متعبة مكتئبة مدمرة نفسياً، فترحل نحو الأزقة المظلمة وتمارس هيجان الرغبة، وتمر بكل المناخات والفصول حتى يسكن جسدها الثائر بشوق الرغبة في هدوءه، كان يجتاحها خوف عميق بكل مهدداته، خوف من كل شيء قادم من المستقبل... لم يعد لديها شيء تنتظره في الحياة فقط تنتظر صمت الليل وهدوئه، انه الوحيد القادر علي ان يجعلها ان تتمسك بالحياة، بدا جمالها الأخاذ في التلاشي والانطفاء أصبحت مثل ضوء باهت، وذلك من اثر الكحول والسهر، أنها تريد ان تعيش علي هامش الحياة بدون رغبة أكيدة في الحياة نفسها، أنها تريد ان تحلم بأحلام تختلف من أحلام الآخرين تريد ان تلج إلى باب الغفران عبر الخطيئة ، تريد ان تستجدي لذة السعادة عبر آلام وعذابات جسدها .. تريد ان تلغي تاريخ صلاحيتها بفاجعة ومأساة اكبر من حجم الحياة نفسها، أنها تستلهم من جنون الحياة تراجيدية صراع الروح والألم .. وحدهم الذين يعرفون كيف يحلمون، يعيشون لكي يحققوا سعادتهم..!

حضر إلى المستشفي عدد كبير من الطالبات الجامعيات، في إحدى الصباحيات الهادئة لفترة تدريبية، وجميعهن دارسات" لعلم النفس" ،

وحفاظاً على ارواحهم ولصغر سنهم تم تخصيص لهم عدد من المرضى المسالمين، الذين يمتازون بالهدوء ومن بينهم تم اختيار خليل وجاره علي ، قامت إدارة المستشفي بتوزيع الطالبات على العنابر بصورة عشوائية، وكان من نصيب خليل فتاة من جنوب السودان اسمها " كريستينا " لها وجه جميل رقيقة برقة نسمة، لها أسنان بيضاء براقة تضفي على ابتسامتها جمال واضح، لها بشرة بلون نحاسي .. أرشدتها الممرضة عفراء إلى مكان خليل، حتى تبدأ جلساتها الدراسية نادت خليل باسمه وحاولت التحدث معه لكنه كان يتأمل وجهها بفضول غير عادى، وعندما اقتربت منه حاول ان يتحسس وجهها تراجعت إلي الخلف وهي في حالة رعب وخوف، قالت لها عفراء وهى تظهر ابتسامة خلابة على وجهها:- انه مسالم لن يؤذيكِ .. لكن كريستينا لم تستوعب ان بإمكانها ان تترك مريضاً نفسياً ان يتحسس وجهها، أنها أول مرة في حياتها، ان تدخل مستشفي إمراض عقلية وان تتعامل مع مرضى نفسيين بطريقة مباشرة ....

كانت عفراء تشجعها وتقول لها : ألا زلتِ خايفة، اتركيه يتحسس وجهك انه يتجاوب معكِ انه يريد التحدث معكِ..

ردت كرستينا: انا اعرف انه مسالم جدا، لكن لا اعرف لماذا عندما تمتد يده نحوي تزداد ضربات قلبي واشعر بخوف...؟ بدأت كريستينا تشعر بإحساس غريب أصبحت تنجذب نحو خليل بقوة، كانت تأتي صباحاً وهي في حالة من الشوق الشديد إليه، تجلس في الكرسي المقابل لفراشه فتخرج دفترها الأبيض الأنيق، وتشرع في الكتابة، فتختلس بين الحين والآخر النظر إليه لعلها تصل إلى شيء يدلها إلى حقيقة حالته المرضية، أما خليل كان يجالس في منتصف الفراش ينفث سيجارته، ويتأملها من خلف الدخان

المتصاعد في هدوء وعمق، كان ينظر لها نظرة غريبة تحمل بعض من الدفء والحزن استسلمت كريستينا لقوة جاذبية عينيه، لقد جعلتها نظراته تقترب منه شيئا" فشيئا، و في إحدى الصباحيات المشبعة بنسمات باردة بينما كانت كريستينا تجلس بجواره على الفراش، امتدت يد خليل متحسسة ملامح وجهها ذلك الوجه الطفولي البريء... يده ترتجف تتغير ملامح وجهه وفجأة تسقط دموعه، دموع غامضة بدون بكاء دخل في هستيريا ونوبة من التشنجات العصبية، التي لا تحدث له إلا عندما يشعر بانفجار داخلي يريد ان يعبر بهي عما في داخله لكن لا يستطيع، حضرت عفراء ومعها ممرضان ضغطوا عليه في الفراش أعطته عفراء حقنه عقار مهدئ وأثناء مقاومته لهم سقط كتاب من تحت وسادته إلى الأرض، تناولته كرستينا دون أن تنظر إليه .. عم الهدوء في العنبر، وكانت كريستينا جالسة في كرسي قرب فراش خليل وهي في حالة من الخوف والهلع، أنها أول مرة في حياتها، أن تشاهد مريضاً نفسياً في حالة هستريا، وبعد فترة من الزمن وبعد أن شعرت بهدوء في دواخلها تطرقت إلى الكتاب الذي بين يديها نظرت إلى الغلاف الخارجي قرأت .. ديوان شعر لا تطرق بابي اليوم الشاعرة إيڤانا أنجلو .. بدأ العرق يتصبب من جبينها بغزارة جعظت عيناها فتحت الكتاب بسرعة، كأنها شعرت بوجود شيء في داخله، يا الهي هذا غير ممكن.. وجدت صورة تجمع خليل وأيڤانا في يوم زفافهما قرأت الإهداء... لا أعلم سر هذا الاندفاع، وأي قوة تلك التي تدفعني نحوك لا استطيع ان أقاوم حضورك.....صرخت كريستينا بصوت عالي وسقطت في حضنه وهي تبكى بكاءً مؤلم تتمزق له الأحشاء وهي تصرخ: أبي انه أبي اتركوني انه أبي، عمت الفوضى في العنبر وتجمهر المرضى حول فراش خليل، حضر الممرضين بسرعة شديدة متوقعين حدوث حالة شغب في العنبر، وجدوا المرضى يحدقون في كريستينا

وهي مصلوبة في حضن خليل وهي تبكي وخليل في غيبوبة المهدئ لا يعلم ما يحدث حوله جذبتها عفراء من حضن خليل وأجلستها في الكرسي، لكنها دخلت في حالة من الهستريا وهي تصرخ باكية: انه أبي ما الذي فعل فيك ذلك لماذا أنت هنا..؟ وبعد مقاومة شديدة منها أعطتها عفراء حقنة مهدئ لتخرج من حالة الهستريا التي إصابتها، بدا العقار يسري في جسدها واخذ يتملكها الهدوء أخذت الصورة من الفراش، وأصبحت تتأملها ثم تتأمل وجه خليل بتمعن شديد تركتها عفراء في هذه الحالة، وذهبت فاتصلت بشادية التي وعدتها بالحضور سريعاً أصبح العنبر في حالة هدوء، بعد ان تفرق المرضى إلي أماكنهم، كان الجميع في المستشفي يريدون ان يعرفوا الحقيقة وسر هذه الطالبة، التي قلبت المكان رأسا على عقب بالتساولأت .. ما عادا المرضى لا يهمهم في الأمر شيئاً، الوقت يمر ببطء شديد، وكريستينا وعفراء جالستان في انتظار شادية لتوضح لهم حقائق كثيرة، وخليل ممدد علي فراشه يحلم بأحلام ورؤئ لا يعلم ماذا تعني له انه فقط يستمتع بغيبوبته.. ظهرت شادية في العنبر وتقدمت نحو كريستينا وهى فى حالة خوف، من المفاجآت الغير جميلة وهى تردد بصوت عالي: أنت تشبهين والدتك بصورة غير طبيعية يا الهي ما هذه المفاجأة التي زلزلت الأرض .. ثم دخلا في حضن بعضهم البعض نزلت دموعهم بغزارة، وكانت شادية لديها إحساس بأنها في حضن إيڤانا الحقيقية.. يا الهي هكذا الموتى يأتوا عبر الإحياء إلى هذه الحياة الغبية التي لا تحمل إي انتماء للإنسانية، لا نعرف حقيقة شعورنا إلا ونحن نعانق أشباح موتانا، جلست كريستينا وعفراء لتروي لهم شادية بكل المراحل التي مرت بهما خليل وأيڤانا، وكثيراً ما كانت تسقط بعض الدموع من كريستينا وعفراء، حياة مؤثرة يتحكم فيها القدر بكامل أدواته لقد انكشفت إمام كريستينا حقائق كثيرة لم تكن تعلم بها من قبل، وكانت غاضبة من الجدة

كستيلا بعض الشيء لأنها أقنعتها بموت والدها منذ مولدها، لماذا كانت تصر جدتي بأن أبي مات منذ زمن..؟!

انتشر الخبر في الجامعة التي تدرس فيها كريستينا، والسكن الطلابي الجميع مستغرب من هذه المصادفة الغريبة .. ذهبت كرستينا برفقة شادية إلي منزل والدها خليل ذلك المنزل الذي شهد أعظم قصة حب..... لقد كانت رغبة كريستينا تريد ان تتعرف إلى المكان الذي جمع والديها، وان تتعرف بدقة على متعلقاتهم و أشيائهم الدقيقة .. كان الغبار في كل مكان يحيط بالأثاث .

مرت الأعوام تغير ايقاع الحياة ذهب من ذهب وبقاء من بقاء.. الحياة أخذت دورتها بمصاحبة القدر ولا زالت الأشياء مكانها، مسودات و اوراق ودراسات نقدية بدا والدها في كتابتها ولم تكتمل، قصائد كتبتها والدتها لم تنشر... اللوحات التي كانت تعشقها والدتها لا زالت معلقة على الجداران .. إثناء تأملها للأثاث ولجت إلي داخل غرفة النوم شعرت ببرودة في جسدها ورهبة، كانت تتحسس الفراش بيديها كأنها تلمس جسد والدتها، فتحت دولاب الملابس، اختارت فستانٍ ابيض اللون من بين مجموعة من الفساتين، أخذت تشم رائحته أنها تبحث عن رائحة والدتها، بدأت دموعها في السقوط كانت تتأمل الأشياء بدقة كأنها تفك رموز قضية معقدة .. جلست هي وشادية في الصالة بعد ان اخذ منها التعب بسبب البحث في أشياء تخص والدها ووالدتها، قررت كريستينا إحضار والدها من المستشفي إلى المنزل ربما تتحسن صحته، وتقوما برعايته هي وشادية بعد ان اتفقا علي ذلك .. قامتا بحملة نظافة واسعة للمنزل فأعادوا له رونقه وجماله... مرت عدة أيام من الزيارات المتواصلة من كريستينا لوالدها، في مرات كثيرة كانت تشعر

بالإرهاق تنام جالسة على الكرسي بالقرب منه حتى شروق الشمس وكانت عفراء لا تزعجها فقط تغطيها بغطاء وتتأمل وجهها الذي ينبض حياة وبرأه ثم تذهب إلي غرفة انتظار الممرضات .

تم إحضار خليل للمنزل، وحضرت عفراء معهم تحمل عقاقيره وأمتعته ولكي تعطيهم بعض الإرشادات، لبعض الأدوية التي تستدعي الحذر في التعامل معها وتودعه الوداع الأخير، اختاروا غرفة النوم مكاناً مناسباً لأقامته، تمدد في نفس الفراش الذي شهد أجمل أيام الحب، التي قضاها في حياته، لماذا كل الأشياء ترجع إلي أصلها ماعدا العقل...؟ كانت عينيه تدور داخل محجريهما تستكشف هذا المكان الأليف إلى نفسه بدأت ذاكرته فى استلام اشارات أدراك خفية ... أصبحت كريستينا وشادية تتناوبان في الاهتمام بهي، شادية تقوم برعايته في الفترة الصباحية لأن المساء بالنسبة لها عالم لا يمكن تجاوزه فيه تمارس أجمل حالات التشظئ التي أدمنتها، إما كريستينا كانت تنتظر الفترة المسائية بفارغ الصبر حتى تحكي له عن طفولتها فى مدينة جوبا، كانت تتحدث معه وهو مسترخي على فراشه:- عندما كنت اشتاق إليك أنت وأمي كنت أتحدث إليكم وإنا انظر إلي صورة زفافكم كم كنتما تملآن نضارة وجمال، يا الهي كم إنا محظوظة وكم هذه الحياة كريمة معي في ان أجدك .. شكراً للرب، احبك أبي احبك أكثر من إي شيء فى هذه الحياة .. كان خليل مستلقي يحملق في سقف الغرفة يبتسم أحيانا بدون سبب وأحيانا تكسو ملامحه مسحة من الحزن، انه يحلم بسبب قوة العقاقير التي يتعاطاها ليدخل في عالم رؤاه بجماله وببشاعته.

وفي احدى الليالي الشتوية الباردة، جلست كريستينا بالقرب من فراش والدها تراجع بعض الدروس والواجبات، وصوت موسيقي تنبعث من

جهاز الكاسيت أنها أحدى سيمفونيات " موزارت "، أنها تحب ان تستمع لـه لديه موسيقي تمتلئ ألفة تجعلها تشعر بدفء وحميمية، وتخلق لها عالم من السكينة والطمأنينة والتوحد في دواخلها، انه يجعلها في حالـة حب وتصوف دائم . فجأة سمعت شهقة صادرة من والدها نهضت اقتربت، من فراشه القت عليه نظرة انه لا يتحرك جسد مسجي في حالـة استسلام تـام، نادتـه بصوت مرتجف وبخوف: ابي ابي هل تسمعني..؟ لا شيء غير موسيقي " موزارت " تشق الصمت بهدوء تسبح في الفراغ وتلتحم مع الظلام، فتصبح خلفيـة للألم مذكرة بالمعاناة الإنسانية علي مر العصور .. حاولت ان تجعله يستيقظ، حركت جسده رفعت بيديها ذراعيه، يا الهي لماذا تموت الآن في هذه اللحظة التي احتاجك فيها؟، اخذت تبكى بهدوء وألم وبنحيب خافت الصوت، وهي تحملق في ملامحه أصبحت مثل مبنى من عدة طوابق تهدم أساسه.. أنها الحياة دائماً تجعلنا نفقد من لا نستطيع ان نتخلى عنهم أنهم الأشخاص الرائعين دوماً ... احتضنت كريستينا جسد والدها، كانت تئن مثل سماء مجروحة ببرقٍ ناري .. رحل ألان بعد ان عاش في استكانة صبر أيوب... وفي لحظة يأس وشموخ وتحدى للقدر، كتبت ورقة صغيرة لشادية بخط مرتجف ووضعتها في المنضدة قرب فراش والدها، ثم حملت كريستينا علبة عقار " الهارمولين " فأفرغتها في فمها وتمددت بالقرب من والدها وحضنته بقوة، أصبحت جسداً خالي من الروح اخرس لا يتململ أو ينوح، امتطت ارواحهم صهوات الموت ارتفعا نحو السماء كانا مثل لوحة تجسد الموت بحزن عميق .. عند أول اشراقات الفجر حضرت شادية وجدت صوت جهاز الكاسيت لا زال يبث موسيقاه .. لقد كان زر التشغيل موضوع علي نظام التشغيل الاتوماتيكي .. شعرت برجفة تسري في جسدها وهي تستمع إلي موسيقى " موزارت "، فهي لا تفضل ان تسمع موسيقاه تقول أنها

اقرب للموسيقى الجنائزية، أنها تفضل مقطوعات عازف الكمان الشهير (بروني سلاف وبرمان) وهو موسيقي هولندي يهودي، الأغرب ان الرئيس الألماني النازي السابق" أدولف هتلر" من المستمعين له، ومن المعجبين بهي بشدة هو وعازف البيانو النمساوي اليهودي (ارتو نابل) انه القاتل الذي يسمع موسيقى موتاه على ضوء القمر .. ؟! دخلت الغرفة يا ربي كيف يحدث ذلك، نظرت في اتجاه المنضدة وجدت علبة العقار مفتوحة وفارغة، وبالقرب منها ورقة مطوية بعناية حملت الورقة وتراجعت عدة خطوات إلي الوراء، ثم تكورت في احدى أركان الغرفة، فتحت الورقة وسط ارتجاف يديها ونزول دموعها بغزارة وأخذت تقرأ، آسفة شادية انه ليس خياري فالحياة اغتالت حلمي الجميل منذ مولدي.. فالله لم يخلقني يوما ضعيفة، أمي ضحية لوجودي وأبي ضحية لحبه وإنا ضحية لحبهما الاثنين لا احد فينا خاسر جميعنا اختار مصيره، انه الحب كتب لنا ان نكون قرابيناً للحب ونحن ألان نطيعه سوف ابلغ سلامك لأمى بلغي سلامي إلي جدتي وقولي لها ان تصلي من اجلنا ..

نحن نحبك يا شادية .. أصبح رأسها يزداد حجما ان موتهما بشكله القرباني موت يشبه حبهما، إنهما يمتزجان وينطلقان نحو السماء روح واحدة، أصبحت شادية تشعر بحالة من الهوان والانتكاس من رحيلهم المفاجئ هذا، أنها الوحيدة الشاهدة على افعال القدر وكوميديته السوداء، تصعد أرواحهم إلي السماء ليلبون دعوه الموت يشاركونه ويشربون نخبه، ويمزجون الثلج بالإزهار ونشوة الحب بشهوة الموت .. ألان تركوني عاجزة عن فعل شيء فقط أقف بين جسدين كانا يمتلكان روح ونبض وذاكرة وإحساس أنساني مرهف، كأنا شفيفان محملان برائحة الحب، انطلقت أرواحهم إلى فضاء الكون لتمارس حريتها وتصبح شاردة جامحة إلى عوالم محاطة بالغموض، ألان احتاج اليكما لماذا تتركاني وحدي في عزلة

الحياة...؟ كنتما أخر أمل يضيء دواخلي .. ما مدى ارتباط الحب بالموت...؟ انه ألان خطف أخر روحين قررا الرحيل إلى عالم أكثر أمنا وسلاماً بعد ان شعرا بالوحدة، في حياة تحتفل بهزائمها وخسارتها، لم أتوقع ان يحمل القدر أخر قلبين تعلق قلبي بهما .. ولم أدرك بان حزني سيلازمني بهذه القسوة وأدمن مصاحبة الموت والأموات، فنحن أسهل الضحايا إمامه حيث لا مفر فقط علينا التشبث بالحياة بأكبر قدر ممكن، ونصبح أنيقين ونكون في انتظاره ان الموت أشبه بعلاقة حب عميقة، لأنه يخلق لنا حاله من التهديد المستمر .. وانه الذي يقرر ويرشدنا إلي خطوط حياتنا العريضة، الآن فقط شعرت شادية بحجم الحزن الذي يحيط بها وحجم المأساة التي تعيشها، انطلقت منها صرخة خرجت بكل الألأم التي في داخلها وكل الإحزان التي مرت بها فى حياتها، فجأة وجدت نفسها في عالم لا تعلم عنه شيئاً ،" مستشفي الإمراض النفسية والعقلية قسم النساء" كيف متى من احضرها هنا..؟ أسئلة لا تستطيع ان تجد لها أجابه فقط أنها تشعر بأن عالمها هنا جميل كانت ترقص وتغني بسعادة ومرح، تلعب الحجلة مع بعض المريضات وتقفز علي الحبل بقمة البراءة والاستمتاع الطفولي، رجعت إلي الخلف عده أعوام دخلت إلى المرحلة التي حرمت منها وافتقدت فيها أشياء مهمة انه الحب والحنان والاهتمام، أنها لم تشعر بهما يوماً، لقد عاشت في محيط اسري يجهل مشاعر بعضهم البعض، كان الهم الوحيد البحث عن الماديات، انه مرض دائماً ما يصيب البرجوازية أنها الأنانية، عندما لم تجد احد بقربها وحدها حملت مسئولية حياتها واختارت طريق شائك ووعر، لكنه اختصر لها حجم وجرعات ألأمها.. كانت رغبتها في ان تعيش بتجارب حقيقية في الحياة، أنها ترفض تلك الحياة التي اختارها لها والديها، لأنها حياة خالية من الحب والحنان، حياة ليس فيها شيء غير الأنانية التي رأتها منهم لم ولن تراها

مرة اخرى في حياتها .. والدها تزوج بفتاة تصغر ابنته لمجرد شعوره بمراهقة عابرة لن تدوم طويلاٍ، إما والدتها أحبت شاب صغير في العمر وهرب الاثنين بجزء من أموال الوالد إلى أوربا ليعيشوا حياة ارستقراطية منعمة، لقد امتلكت الشباب والمال انه حلم اغلب النساء لا اعرف بماذا سوف تحكم عليهم الحياة ؟ وصل خبر انتحار كريستينا إلي الجدة كستيلا امتلأ قلبها بالحزن حتى كاد ان ينفجر، وكانت تردد في دواخلها يا ربي ماذا فعلت في حياتي حتى أعاقب هكذا ..بكت بمرارة وألم ثم حملت عصاها التي تتوكأ عليها واتجهت نحو الغابة، إن الوحوش أهون من البشر وان الحياة قاسية ويجب أن انزوى في هذا الجانب من الحياة، الذي لم تدنسه أقدام البشر بعد لم يعد لي في الحياة ما انتظره، فالحياة نفسها تأخذ ما أعطته للإنسان يوما ما عن رضاء أو بدون رضاء، قضيت عمري وأنا اطرد وأكافح الخوف والضعف من دواخلي لماذا الآن يدركني الفشل في آخر لحظات العمر.....؟!

اختفت الجدة كستيلا وهي تمضي نحو الأفق، وهي تصدر همهمات غير مفهومة إنها الآن تريد أن تهرب من الواقع المرير بفواجعه لقد أصبحت لا تحتمل هذه الضربات الموجعة من القدر الذي أصبح يتربص بها..

وبعد مرور عامين لوجود شادية بالمستشفي حضر لها زوار قادتها الممرضة من العنبر إلي المكان المخصص لمقابلة الزوار، ألان بعد كل هذه الفترة من الزمن حضرت وأخيراً أدركت بان لها ابنة، هل تعلم إلى أي مدى تعذبت وعانت في غيابها ؟ إنها والدتها برفقة زوجها الشاب الوسيم.... هرولت نحو ابنتها شادية عندما رأت الممرضة تقودها، ممسكة بها من زراعها وأخذتها في حضنها وأخذت تبكي بحرقة شديدة وهي تردد: سنين مضت من عمري وأنا ابحث عنكِ في كل مكان أين كنت ؟ وماذا حدث لكِ إن

كل ما حدث لكِ بسببي وبسبب أخطائي نحوك سامحيني يا ابنتي أريد أن أعوضك عن حبي وحناني..

إن الحب والحنان حالة إنسانية وإذا فقد من دواخلنا من الصعب أن نكتسبه مثله مثل الأشياء التي تنمو معنا بالفطرة، كانت شادية تلهو بدمية ممزقة ومتسخة لا تشعر بوجود والدتها ولا تنفعل لبكائها، حاولت والدتها أن تخرجها من المستشفي لكنها لم تستطيع فعل ذلك كانت شادية تصرخ بهستريا وهي تتشبث بالممرضة بقوة، وكانت تصرخ بصوت عالي وهي تردد: اتركوني لا أريد الذهاب، أريد أن ابقي هنا .. كانت تقفز وهي تصرخ كأنها طفلة في الرابعة من العمر.. تركتها والدتها وسط صراخها واستنجاداتها، ذهبت شادية إلى العنبر وهي تحتضن دميتها بقوة وتركت والدتها حائرة وسط دموعها .. لقد تعلقت شادية بالمكان هنا في هذا المكان تشعر بالأمان، والجميع يحبها لبراءتها وعشقها للمرح ولديها صديقات من المرضى والممرضات، إنها تريد أن تقضى بقية عمرها هنا.. إنها تخاف من الحياة خارج أسوار المستشفي، لقسوة الحياة وعدم وجود رحمة وحب وعاطفة صادقة بين البشر ومفاجآت القدر الغير متوقعة، إن جميع هذه الأشياء أصبحت تشكل لها خوف غير متناهي من العالم الخارجي، أصبحت والدتها تحضر لها باستمرار في عطلة نهاية الأسبوع وتحمل لها كل الأشياء التي، كانت تحبها في الصغر، شكولاتة، وألعاب، وملابس زاهية الألوان، وكانت والدتها تدفع بعض المبالغ المالية للممرضات حتى يهتموا بها..

أصبحت شادية أشهر مريضة في المستشفي لثراء والدتها، وكانت تمتاز بالكرم وكان عندما يتم إرسال متطلباتها توزعها على المرضى في العنبر معها، طعام، حلوي، ملابس، ألعاب ..

بدأت شادية تستعيد جمالها وجاذبيتها ويعود ذلك باهتمام الممرضات الشديد بها، انه جمال مجنون في قاعدة المنطق ما قيمة جمال بدون عقل ؟! إنها الآن أصبحت مثل تمثال " فينوس " تجعل من ينظر لها في حالة من الرهبة والذهول بسبب جمالها الصارخ، لكنه في نهاية الأمر جمال جامد لا ينبض حياه ليس فيه إحساس أو شعور لا يحب لا يفرح لا يحزن ... قطعت مسافة عكسية ورجعت إلى الماضي، ودخلت مرحلة برأتها الأولى إلى الطفولة بكل معانيها السامية، لم تعد تعي ماضيها لقد غفر لها القدر خطاياها، ولم تغفر لها السماء، كانت تعيش حياة مليئة بالانتقام من وجودها في الواقع، وكانت تتمنا الموت لكن القدر جعلها شاهدة على معاركه مع الآخرين وجعلها تعيش بدون ذاكرة.. حتى تنسي آلامها ولا تشعر بها، لقد ولدت في الحياة من جديد لتمارس دورها الجديد وان تتحول من امرأة يسكنها شيطان الرغبة إلى طفلة تبحث عن بعض الأمان خلف مآسيها وجراحاتها التي خلفها لها الماضي، كانت تتألم بشدة جراء ما أصابها من قهر وانكسار تريد أن تنزوي الآن في هذه اللحظة، لتصبح أكثر تصالحاً مع نفسها وأكثر إنسانية بجنونها...

أصبحت تقدس إيقاع حياتها اليومي وسط هذا الزخم الفوضوي، وتشعر بسعادة غامرة تجتاح دواخلها، لا تدرى من أين تأتي؟! ألان فقط أستنفدها القدر وجردها من معاناة استمرت بطول العمر، بداء المرض في الزحف نحو جسدها الذي أخذ في التلاشي بوحشية، أدمنت عقاقيرها المهدئة حتى تسكت إلام فظيعة تشعر بها   كانت تدخل في حالات إغماء تستمر عدة أيام، وتصاب بهذيان تصدر منها أصوات غريبة، تصرخ بفزع تبكى أحيانا يتصبب العرق من جسدها بغزارة .. كأنها تقاوم إلام حادة تشعر بها في

دواخلها، ثم تستيقظ علي أصوات المريضات في العنبر وهن يلعبن الحجلة، بأصوات متناغمة ذات إيقاع موسيقى، في مناخ صباحي بارد ينتشي فيه جسدها الحائر بين الحياة والموت، والانطلاق والسكون ... أنها ترغب في أن تشاركهم سعادة لا يشعرون بها تريد ان تلهو معهم، وأن تخرج من جسدها المسجى، كائنٍ أخر يقفز ويلهو بمرح ونشاط هكذا عندما يصيبنا المرض ويتآكل الجسد، يغمرنا شعور جميل نحو قيمة الصحة !! لماذا يأتي هذا الشعور في اللحظات الأخيرة من انتهاء عمرنا الافتراضي...؟ ربما لان الإنسان ينظر إلى الوجود نظرة فلسفية عميقة وهو يرتب أمر حياته بهدوء وصمت ونظام، أنها الفرصة الوحيدة التي يشعر فيها القدر بسموه وكبرياه نحو الجسد، كيف نطهر دواخلنا..؟ أصبحت مقعدة وجلست علي كرسي متحرك، قيد حركة جسدها الذي عشق التحرر والانطلاق، كثيراً ما كانت تسقط من مقعدها المتحرك إلى الأرض، فتهرع الممرضات ويساعدوها علي النهوض، لقد كانت لديها رغبة شديدة في ان تتحرر من هذا الكرسي الصديق اللعين، الذي يقيد حركة جسدها .. تريد ان تقفز وتطير عالياً وتغني، مثل تلك العصافير التي تتأملها من خلف نافذة العنبر وهي تقفز بسعادة على أغصان الأشجار المزروعة علي فناء المستشفي . كانت تحقق أحلامها تحت تأثير عقاقيرها المهدئة، تحلم بروى وأحلام لن تتحقق علي ارض الواقع.. لازال الليل عشقها بصمته وهدوئه، يرسل القمر ضوئه عبر النافذة يغمر جسدها يزودها قوة، تنتابها رعشة مقدسة، مثل طائر "العنقاء" تنهض من رمادها تتذكر رغبتها الأولى بداية تفتق بذور شهوتها، جسد حتى في لحظات مرضه وتمرده عن عقله العاق بدون ذاكرة، سكراناً منتشي يمارس طغيانه وجبروته دون أن يعي بأنه علي فراش المرض...يتوسل لحظات عشق تتثاب له شمس الصباح ويئن تحت وطأة ذكرى أطياف عشاقه .. امرأة نغمة

مجبولة بحنين قديم، امرأة أصبحت من خسارات الماضى كانت تفتح قلبها شرفة، علي شارع يؤمه عابري السبيل والصعاليك والمغنين الغجر .. ويصبح جسدها شراشف بيضاء، تبحث عن نسيم هادئ يداعبه.... وهي في انتظار قيامة تنفي الوجود، وتبحث عن أصل آلامها التي تصنع لها في كل لحظة زفيراً تصادق بهي الحياة، في كل صباح جديد وعقلها الذي خارج إطار الواقع يبحث عن حقيقة وجوده...صوت موسيقى افريقية تجتاح الصمت تحملها نسمة قادمة من أفق المدينة، الغارق في ظلامه الدامس، تعلو اهتزازات الجسد، يحاول ان ينعتق من بوتقته، يبحث عن خلاصه العظيم، تعبر إلى انفها رائحة عطور جميع الرجال الذين عاشرتهم .. تشعر بغصة تقف في الحلق ، تحاول ان تصرخ لتحرر دواخلها، في منتصف الغرفة تحت ضوء القمر تلمح خيال معتصم يقف مثل مارد ينحني برأسه نحو الأرض بحزن اكبر من مساحة وطن .. تنطلق صرخة مدوية تخرج معها كل أحلام الطفولة وكوابيس الحياة، لتغرس في قلب السكينة والهدوء سيفاً من غموض انفعالات روحها وهدير وغليان جسدها .. تسقط من على فراشها إلى الأرض يتشظي جسدها تتبعثر ذكرياتها، تعانق القدر تتلاشي فى حضن إرادته وتحت رحمته .. يحاول هذا الجسد أن يتحرر من بوتقته ويبحث عن عالم من الدهشة، يأتي إلى إذنها صوت أناس من عبر النافذة اقرب شيئاً فشيئا، يسقط الطاغية، يسقط الديكتاتور ابتسمت تذكرت معتصم شعرت بروحه، يعانقها يتحسس جسدها، يقودها نحو نفق طويل ينتهي عند قرص الشمس تغمض عينيها حتى لا يهرب الحلم، تسقط دمعة بحجم زخة مطر فتنزوي في صمتها الأبدي، والثورة تشتعل ويختلط اصوات الثوار الذين يشدون بأناشيد للوطن والحرية، مع اصوات اطفال ينشدون أغنية، بموسيقى ذات إيقاع منتظم ينشدون أغنية للمطر ......